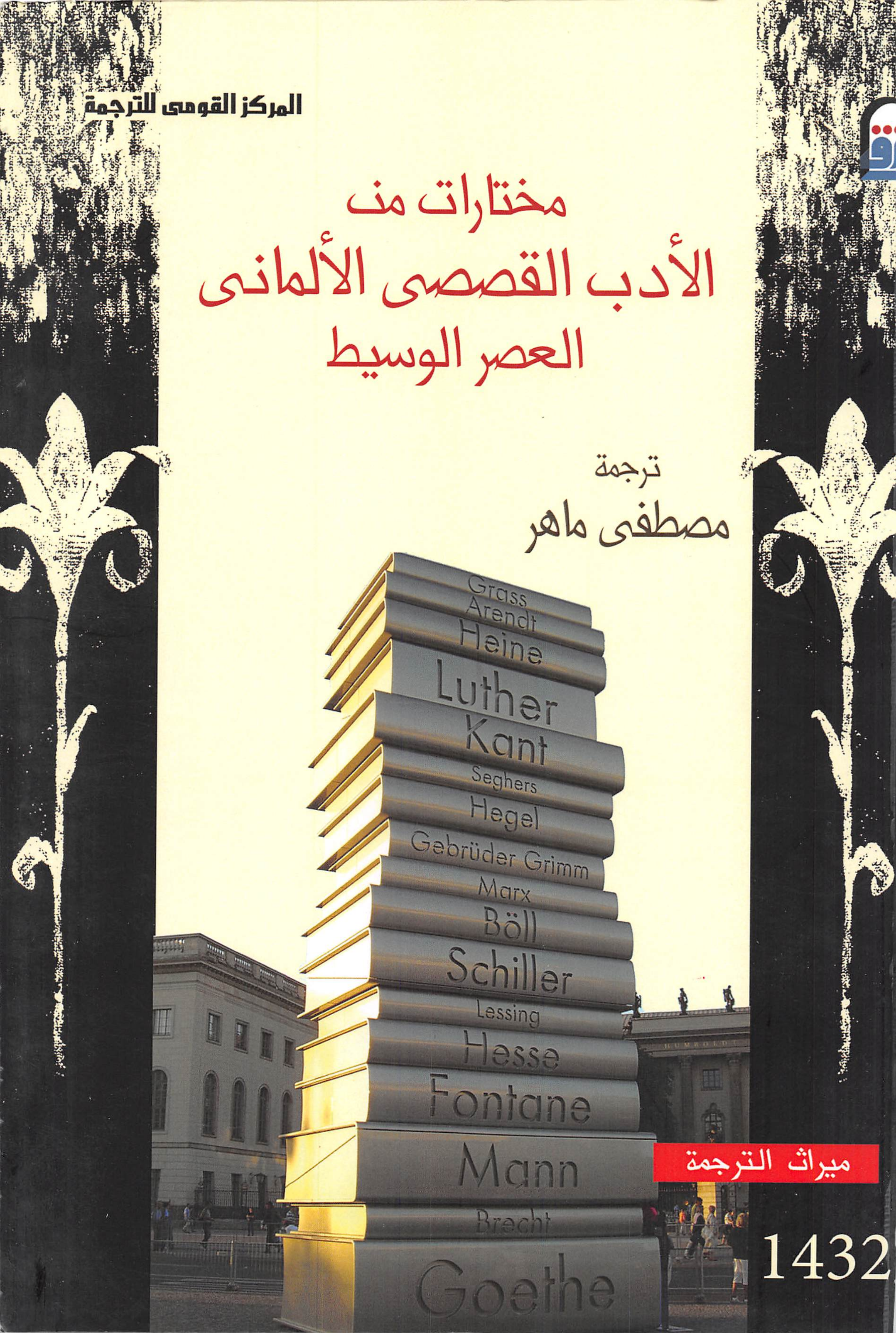

المركز القومى للترجمة
مختارات من
الأدب القصصى الألمانى
العصر الوسيط
ترجمة
مصطفى ماهر
Grass
Arendt
Heine
Luther
Kant
Seghers
Hegel
Gebrüder Grimm
Marx
Böll
Schiller
Lessing
Hesse
Fontane
Mann
Brecht
Goethe
ميراث الترجمة
1432

إننا نقدم فى هذا المجلد نصوصاً طويلة، كاملة أحياناً، ومقتطعة من أعمال كبيرة فى أحيان كثيرة، حرصنا فيها على أن تكون جامعة لسمات العصر والمؤلف حتى يكون القارئ صورة صحيحة عن الأدب القصصى الألمانى فى العصر الوسيط. ولعل القارئ بعد ذلك يشاركنا الرأى فى أن أدب هذه القرون البعيدة لا يزال جديراً باهتمامنا، فهو جزء من تكويننا الثقافى، وهو دليل على أن التفاعل الثقافى بين الثقافة العربية والإسلامية والثقافات الأوروبية، أعمق بكثير مما قد يتصور الإنسان عامة.

مختارات من

الأدب القصصى الألمانى

العصر الوسيط

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : 1432
- مختارات من الأدب القصصى الألمانى (العصر الوسيط)
- مصطفى ماهر
- 2009

هذه ترجمة

مختارات من الأدب القصصى الألمانى

(العصر الوسيط)

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

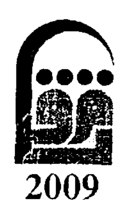
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

مختارات من

الأدب القصصى الألمانى

العصر الوسيط

ترجمة : مصطفى ماهر



2009

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مختارات من الأدب القصصي الألماني (العصر الوسيط) /
ترجمة: مصطفى ماهر
القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٩
٢١٢ ص ؛ ٢٤ سم
١ - الأدب الألماني - تاريخ - العصور الوسطى
(أ) ماهر ، مصطفى (مترجم)
٨٣٠,٩

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٣٢٠٣٢
الترقيم الدولي I.S.B.N.978 -977 - 479 - 770 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليست حاجتنا الى قراءة الآداب الاخرى بالامر الذى يسعى باحث ناقد الى اثباته وإقامة الدليل على اهميته ، فهو من المسلمات .. وليس الحديث عن تخلفنا عن ركب الترجمة بالشيء الذى يصح أن نعود اليه ، فهو أيضا من المسلمات . ولكننا نحسن صنعا عندما نتحدث عن الاساليب المثلى التى ينبغى أن نأخذ بها لكى نلحق بالركب . فهناك من يرى ألا تقتصر الترجمة على لغة أو لغتين ، بل ينبغى أن تشمل لغات الثقافة كلها . وهناك من يرى أننا لايجب أن نقتصر على عصر دون غيره ، بل ينبغى أن تغطى حركة الترجمة كل العصور . وهناك من يدعو الى ترجمة كتب الأدب وكتب النقد معا ، حتى لانبقى بعيدين عن الافكار والنظريات .. وهناك من يرى ألا تقتصر خطة طموحة للترجمة على الجوانب الادبية والفنية والفلسفية ، بل يدعو الى نقل كتب العلم والتكنولوجيا ، والكتب التى تتناول الأحداث الجارية . — ولاشك فى أن هذه الافكار كلها صحيحة ، ولكننا عندما ننظر الى الامكانات المتاحة سواء من ناحية المترجمين أو الناشرين أو القراء ، نجد أن الاساليب المثلى التى اشرنا اليها تتجه الى الاختيار ..

فليس فى الامكان أن ننقل الى لغتنا كل ماينبغى أن ننقله اليها دفعة واحدة وفى وقت قصير . ولهذا كان علينا أن نخطط للمدى البعيد ونخطط فى الوقت نفسه للمدى القريب . واذا نحن اتخذنا من الأدب الألمانى مثلا ، فاننا نجد أن ماترجم الى العربية منه حتى الآن شيء قليل جديد ، وان كثيرا مما ترجم يحتاج الى اصلاح أو اعادة لأنه لايفى بما يجب أن تكون عليه الترجمة من الدقة والسلاسة .. ولهذا فنحن بحاجة الى تعريف مبدئى بالأدب الالمانى اولا ، وبحاجة الى ترجمات للأعمال البارزة ثانيا ، وبحاجة بعد هذا وذاك الى حركة مستمرة مثابرة تسد الثغرات على مر الزمن . ومن هنا جاءت فكرة المختارات .

اننا نقدم في هذا المجلد نصوصا طويلة ، كاملة أحيانا ، ومقتطفة من أعمال كبيرة في أحيان كثيرة ، حرصنا فيها على أن تكون جامعة لسمات العصر والمؤلف حتى يكون القارىء صورة صحيحة عن الادب القصصي الالماني في العصر الوسيط . ولعل القارىء بعد ذلك يشاركنا الرأى في أن ادب هذه القرون البعيدة لايزال جديرا باهتمامنا ، فهو جزء من تكويننا الثقافي ، وهو دليل على أن التفاعل الثقافي بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافات الاوروبية ، أعمق بكثير مما قد يتصور الانسان عامة .

وقد رأينا أن تخرج «المختارات» في مجلدات ، تبدأ بالقصة وتنتقل الى المسرح وتنتهي الى الشعر الغنائي . وكلنا أمل في أن يجد فيها القارىء نفعا ، وأن يجد فيها البحث العلمي في الآداب المقارنة لبنة يقوى به بناؤه ، وأن يجد فيها المترجمون حافزا على الترجمة التي تسد الثغرات وما أكثرها .

والله ولي التوفيق

دكتور مصطفى ماهر

الباب الأول
التراث القصصي قبل انتشار المسيحية

عندما يتحدث المعنيون بتاريخ الثقافة الالمانية عن المكونات الاولى التى قامت عليها هـذه الثقافة ، فانهم يبرزون عناصر ثلاثة : العنصر الجرمانى والعنصر المسيحى والعنصر الاغريقى الرومانى . واذا كانت المنطقة التى نعرفها اليوم وطنا للأمة الالمانية قد ضمت بين جنباتها فى عصر ماقبل التاريخ أمة الكلتيين فان الجرمان القادمين من الشمال ، من اسكاندنافيا ، قد دفعوا الكلتيين الى جبال الألب تارة والى الغرب تارة . واستقروا منذ القرن الخامس قبل الميلاد فى مكانهم . حتى اذا جاء يوليوس قيصر فاتحا فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح وجد أمة الجرمان على ضفاف الراين والدانوب والفايكسل . وتحدث يوليوس قيصر (١٠٠ — ٤٤ ق م) عن الجرمان فى كتابه عن حرب غالة ، ثم جاء المؤرخ كورنيليوس تاسيتوس (٥٥ — ١٢٠ ميلادية) فتحدث حديثا فيه شىء من التفصيل عن هؤلاء القوم فى كتابه «جرمانيا» . الا أن النتاج الادبى للجرمان ضاع لأنه كان يلقى على الناس شفاهة ، فلما جاءت المسيحية لم تجد فيه مايستحق التدوين ، بل وجدت فيه الكثير من الوثنية فأهملته ولم تصل الينا من الاعمال القصصية المبكرة الا أشياء متفرقة كانت الصدور قد حفظتها فدخلت فى بعض الاعمال الادبية المتأخرة ، أو أتيحت لها فرصة التدوين بعيدا عن ألمانيا كما حدث عندما دون سنورى ستورلوزون فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى فى أيسلانده طائفة من الأناشيد البطولية الجرمانية عرفت باسم « الايدا » .

كذلك حفظت المصادفة البحتة قطعة من قصيدة قصصية قديمة دونها اثنان من الرهبان فى مطلع القرن التاسع الميلادى يبدو أنهما كانا يجربان القلم أو الحبر فكتبا أول ما خطر ببالهما من الأدب الشائع .

أنشودة هيلديبراند

تحكى الأنشودة قصة البطل هيلديبراند،معلم فى السلاح فى جيش ديتريش الفيرونى ، الذى عاد الى وطنه بعد غيبة ثلاثين سنة قضاها فى محاربة الاعداء وملاحقتهم فى كل مكان .وها هو ذا يلتقى بابنه هادوبراند على الحدود ، وقد شب الابن وأصبح بطلا هو الآخر . واذا كان الأب قد عرف ابنه فان الابن لم يعرف أباه . بل ظن أنه من الأعداء الماكرين وأنه يدعى الأبوة حتى يحقق مآربه ، ويحل أرضا ليست له . ولقد حاول الأب أن يقنع الابن فلم يفلح فقدم اليه أساوره هدية تعبر عن حسن النية فلم يقبل الابن الهدية ، ثم تطاول هادوبراند على أبيه وهو منكر له ، وأهانه ووصمه بالجبن ، فلم يكن امامه الا ان يرفع السيف دفاعا عن الشرف . ودارت رحى معركة عنيفة لانعرف كيف انتهت ، وأغلب الظن أن الأب غلب ابنه وقتله .

سمعتهم يحكون
عن محاربين التقيا وجها لوجه
هيلديبراند وهادوبراند ، بين جيشين ؛
التقى الأب والابن ، وشرعا السلاح
ورفعا السيوف ، ولبسا عدة الفرسان اذ يتأهبون للمعركة
فتكلم هيلديبراند ، وكان رجلا عظيما
ذا خبرة وحكمة . فسأل الآخر
بكلمات مقتضبة عمن يكون أبوه
بين الناس ....
..... أو قل لى من أى عشيرة انحدرت .
قل لى الاسم ، اسم الأب ، وأنا أعرف العشيرة .
فلى علم بذلك بما أنا رجل من رجال الملك فى دياره .
فتكلم هادوبراند ، ابن هيلديبراند :
حدثنى فى زمان مضى أناس
كانوا شيوخا من الحكماء ، قضوا نحبهم ،
فقالوا ان أبى كان يدعى هيلديبراند ، وان اسمى هادوبراند ،
وان أبى زحف شرقا فرارا من غضب أوتاكر
وكان معه ديتريش ورجاله الكثيرون .
وخلف أبى فى البلد بلا عون

زوجة فى الدار ، وابنا صغيرا ،
وأهلا بلا تراث .. واتجه ناحية الشرق .
وساءت حال دريتريش
فقد بقى بلا صديق ..
كان أبى يكره أوتاكر أشد الكره ،
ويخلص لدريتريش أعظم الاخلاص .
وكان دائما يتقدم الصفوف ، ويحب القتال حبا جما ؛
وكان أولو العزم والبسالة من الرجال يعرفون قدره .
وانا لا أعتقد أنه لايزال على قيد الحياة .
فقال هيلديبراند : يعلم الاله فى السموات العلى
انك بهؤلاء الرجال من عشيرتك
لن ترحف للقتال بعد الآن أبدا ...
ثم حل من ذراعه اساور من ذهب
كان القيصر ، ملك الهون ، قد اعطاها له
وقال : اليك هذه اعطيك اياها راضيا .
فتكلم هادوبراند ، ابن هيلديبراند ،
بالحراب تقابل مثل هذه العطايا
وما جزاء السوء الا السوء ...
انك شيخ من شيوخ الهون
تظن انك تغرينى بكلامك ، لتضربنى برمحك .
لقد وصلت الى العمر الذى تتقن فيه الكذب والخبث .
وما قولك فى ان بعض البحارة حكوا لى
ان الحرب اطاحت بأبى غربا وراء المحيط ،
لقد مات هيلديبراند ، ابن هيريبراند .
وتكلم هليدبراند ابن هيريبراند :
ان سلاحك ينبئنى
بأن لك سيدا عظيما فى وطنك ؛
فلم يقضى عليك ان تفر من هذه البلاد .
ثم قال هيلديبراند : ياحسرتاه ... رباه .. ياصاحب الامر !
ما أرى الا أن المصيبة قد حلت أو أوشكت .
لقد تجولت من فصول الصيف وفصول الشتاء ستين فصلا خارج
البلاد

أشق الصفوف مقداما الى القوم الضاربين
فلم يدركني الموت امام اى حصن من الحصون
فهل تقدر على أن يضربني ابني الآن بالسيف .
وأن يصيبني بسلاحه ، او ان اصبح انا قاتله .
ولكنك تستطيع بكل يسر ، ان واتتك قوتك ،
ان تأخذ من الرجل المسن الجليل سلاحه ،
وان تغنم غنمه ، ان كان لك وحدك فى ذلك حق .
وقال هيلديبراند
اجبن جبناء قوط الشرق
من يردك عن الدخول فى معركة ترومها
وسيحسم النزال فى معركة اليمة
أمرنا . فيبين من ينزل اليوم عن سلاحه
ومن ينال سلاح رجلين .
وكانت الضربة الاولى بالرماح
انطلقت كانتفاضة حادة واستقرت فى الدروع ..
والتحما فدكا الارض ، وشقا الدروع
وضربا التروس البيضاء ضربا عنيفا
حتى تضاءلت اشجار الصفصاف وتناثرت
تحت وقع السلاح ....

أنشودة فيلاند

تحكى هذه الانشودة التى تتضمنها مجموعة الايدا عن الحداد والصائغ فيلاند الذى أخذ روعة صناعته عن الأقزام وهم قوم من أقوام الجن ، ذهب فيلاند الى الملك نيدود . فما كان من هذا الا أن قطع اعصاب ركبتى فيلاند ، بناء على مشورة من زوجته الملكة ، حتى يضمن بقاءه عنده وحده دون غيره من الملوك .. ولكن اخاه «اجيل» ، وكان من الرماة البارعين ، التحق ببلاط الملك ، ليعين فيلاند على الهرب والانتقام . فكان يصيد الطير ، فيجمع فيلاند ريشها ويصنع منه جناحين ليطير بهما . واستطاع فيلاند قبل فراره أن يقتل ابنى الملك ، وصنع من الجمجمة والعظام حليا أرسلها الى الأسرة الملكية فيما كان يرسله اليها من حلى ، كذلك اطلخ شرف الاميرة بودفيلد عندما اتت اليه ليصلح

لها اسورتها . فلما تم له هذا حلق بجناحيه فى الفضـــاء ، وأعلن على النـــاس انتقامه وانتصـــاره على الملك • واغتاظ الملك وأمـــر اجيل بأن يرمى فيلاند رمية حاسمة ، ولكن اجيـــل تظاهر بالرماية دون ان يصيب أخاه ، وهكذا نجا فيلاند بجناحيه ..

وتسبق هذه القصة مقدمة قصصية نعرف منها أن فيلاند واحد من اخوة ثلاثة : فيلاند وشلاجفيدر واجيل ، تزوج الثلاثة من ثـلاث فتيات ممن يكتسين ريش البجـع ، الفتيات البجعات ، كن يغـزلن الكتان ، أى يصنعن أحداث القدر ، هن : هلادجود شفانفايس وهرفوز الفيت (بنتا الملك لودفير) وأولرون (بنت الملك كيار) . وحدث أن طارت النساء البجعات كما تطير الفالكيرات أو النســاء المحاربات لمســاعدة الأبطال ، فخرج الرجال الثلاثة بحثا عنهن ، وهكذا بدات قصة فيلاند مع الملك نيدود .

اقبلت بنات من الجنوب طائرات عبر (الميركفيد) ،
وفيهن (ألفيت) الحسناء ، يصنعن القدر .
وجلسن ينتظرن على الشاطىء ،
بنات الجنوب ، وعكفن على غزل الكتان الثمين .

كانت احداهن تحب (اجيل) ،
البنت الجميلة ذات الصدر الذى يحاكى بياضه بياض الثلوج .
وكانت الثانية (شفانفايس) ، التى تكتسى بريش البجع .
تطوق (شلاجفيدر) بذراعين ناصعتين .
أما الثالثة ، اختهن ،
فأحاطت بذراعيها جيد (فيلاند) الابيض .

هكذا جلسن سبعة فصول من فصول الشتاء ..
فلما جاء الفصل الثامن استبد بهن الحنين الدائم ..
حتى حل الفصل التاسع ففرقتهم البلية :
وذهبت البنات عبر (ميركفيد)
وفيهم (الفيت) الحسناء ليصنعن القدر .

وأتى من ناحية (الفايدفيرك) فيلاند بعينيه اللتين تحاكيان الجو
وقد سار فقطع مسافة طويلة ،

كذلك أتى (شلاجفيدر) و (اجيل) : فلاحت لهم القاعة مهجورة
فخرجوا ونظروا حواليهم

وركب (اجيل) زحافة الثلج ناحية الشرق بحثا عن (أولرون)
واتجه (شلاجفيدر) الى الجنوب بحثا عن (شفانفايس)
وبقى (فيلاند) رحيدا فى وديان (فولفستيلر) .

وطرق فيلاند الذهب الأحمر ورصعه بالأحجار الكريمة البراقة .
وصنع أساور الثعبان المستديرة .
كذلك بقى ينتظر زوجه ذات الطلعة المنيرة كالشمس
(هرفور) وضاحة الجبين . علها أن تعود ..

فسمع (نيدود) ، الملك النيارى ،
أن (فيلاند) يقعد وحيدا فى وديان (الفولفستيلر) .
فركب الرجال الركائب ليلا ، وحملوا التروس المصفحة
التى شعشعت فى ضوء القمر وكان هلالا .

وترجلوا عن سروجهم عند شرفة القاعة ،
ودخلوا فاجتازوا القاعة كلها .
ورأوا الأساور مصفوفة على الحصير :
سبعمائة اسورة يمتلكها الصائغ .
فخلعوها ولبسوها
الا الاسورة تركوها .

واتى من ناحية (الفايدفيرك) فيلاند وعيناه تتقلبان مثل الجو
وكان قد سار فقطع مسافة طويلة .
وتأهب ليشوى لحم الدب فى النار :
واشعل الحطب ، وفروعا من شجر الحور القديم
واخشاب الغابة الجافة التى تلحفها الريح : ارتفعت نارها كلها أمـام
فيـلاند ..

وقعد يستريح على جلد الدب ، وعد الاساور
التى تلقاها من ربات الايلف ، فافتقد احداها ،
وظن أن (هيرفور) الشابة قد عادت
هيرفور بنت هلودفير ، واخذتها .

وطال قعوده ، فغلبه النعاس .
فلما صحا ، وجد السعادة قد ولت ،
وأحس ذراعيه ترسفان فى أغلال شديدة
وقدميه فى القيود .

« من هؤلاء الامراء الذين قيدونى بالاغلال
وربطونى بالحبال ؟ »

فصاح (نيدود) - الملك النيارى قائلا .
« أين وجدت ياحاكم الايلف ، يا فيلاند ،
الذهب ذهبنا ، فى وديان الفولفستلر ؟
فلم يكن هناك ذهب ، هناك على طريق (جرانيس) :
وذلك بلد بعيد عن صخور الراين » .

« اما أنا فأقول اننى واخواتى كنا نحفظ فى خزائننا جواهر أعظم
عندما كنا فى دارنا سالمين أزواجا لنساء من نسل الملوك :
(هلادجود) و (عرفور) بنتى (هلودفر)
و (أولرون) المعروفة ابنة الملك كيار .

وكانت الملكة المحنكة فى الخارج
فدخلت واجتازت القاعة كلها
ثم وقفت باب المدخل ، وخفضت صوتها :
« لا يطمئن القلب الى هذا الرجل القادم من الغابة

فعيناه تشبهان الدود البراق
وهو يكشر عن أسنانه عندما نريه سيفه (= الذى اخذه الملك)
وعندما يرى الاسورة حول ذراع (بودفيلد) (= اخذها الملك واعطاها لابنته) .
فاقطعوا أعصابه عند ركبته
حتى يبقى فى (سيفارستاد) الى الأبد » .

« اننى أرى سيفى يلمع فى حزام (نيدود) .
سيفى الذى شحذته بكل ما استطعت من مهارة ،
سيفى الذى طرقته حتى رضيت عن صلابته .
لقد بعد عنى سلاحى اللامع البراق
ولن يعيده (فيلاند) الى مصنعه ،

وهذه هى (بودفيلد) — لا أنتظر استغفارا ! —
تنبس أساور زوجتى الذهبية » .

وظل قاعدا أبدا ، لاينام ، ولا يرفع مطرقته ،
بل يدبر للملك أشياء خبيثة .

واقبل الصبيان متلصصين ، ابنا الملك ،
الى (سيفارستاد) لرؤيه الكنوز .

وذهبا الى الصندوق وطلبا المفاتيح ،
وانفتحت لهما المصيبة عندما أطلا فى الصندوق
رأى الصبيان جواهر كثيرة
وحليا ثمينة وذهبا أحمر .

« تعاليا وحدكما الى ، فى يوم آخر ،
وأنا اعطيكما الذهب كله .
ولا تقولا للغلمان ، ولا للفتيات فى القاعة ،
ولا لأى انسان ، أنكما ستأتيان الى . »

وسرعان ماقال الأخ لأخيه ،
وحدث الصبى الصبى الآخر : « تعال نذهب الى الأساور » .

وذهبا الى الصندوق وطلبا المفاتيح
وانفتحت امامهما المصيبة عندما أطلا بداخله ،
فقطع (فيلاند) راسى الصبيين ،
والقى باقدامهما فى حفرة الأغلال .

واخذ طاستى الجمجمتين من تحت الشعر
وكفتهما بالفضة وأرسلهما الى (نيدود) .
ومن العيون صنع أحجارا كريمة
وأعطاها لزوج الملك المحنكة الخبيرة .
ومن اسنان الاخوين جميعا
صاغ حلية للصدر أرسلها الى (بودفيلد) .

وكانت (بودفيلد) تزهو باسورتها ،
باعظم الحلى ، فانكسرت الاسورة ،
فذهبت باكية الى فيلاند :
« لا أجرؤ على الحديث عن كسر الاسورة الا اليك يافيلاند . »

« سأصلح الكسر الذى أصاب الذهب
فيصبح فى عين ابيك أفضل مما كان
ولا ترى أمك نقصا في الاسورة
وتجدين أنت الاسورة رائعة كما كانت . »

وأتاها بالجعة ، بأفضل جعة عرفها ،
وسرعان ماغلبها النعاس وهى قاعدة ..

« هأنذا ملأت أنفى برائحة بليتى كلها
انتقاما ممن يفرحون للمصائب ، وبقى أمر واحد . »

وقال فيلاند : «ياليتنى أسترد أعصابى
التى قطعها أجلاف نيدود ! »

وارتفع (فيلاند) فى الهواء ضاحكا
وذهبت (بودفيلد) من الجزيرة باكية
خائفة من العشيق ومن غضب الأب .

وكانت الملكة المحنكة الخبيرة تقف فى الخارج
فدخلت واجتازت القاعة كلها
وجلست على الجدار وانتظرت :
« أصاح انت يا (نيدود) ، ياملك النياريين ؟ »

« لم يعد جفنى يغمض ، وقد جردنى القاتل من السعادة ،
لم يعد النوم يواتينى منذ موت الولدين .
وهذا راسى خامد بارد ، وكانت مشورتك عقيمة باردة كذلك .
اننى اريد الآن أن أتكلم مع فيلاند .

قل لى يافيلاند ، يارئيس الابلف :
اين ابناى اللذان كانا فى عمر الزهور ؟

« عليك أولا أن تقسم الايمان كلها
وتقسم على حافة الترس ، وعلى كاهل الحصان ،
وعلى سن السيف ، وحد السفينة ،
ان امرأة فيلاند لن يصيبها سوء ،
وانك لن تأمر بقتل زوجى ،
ولعلك تعلم ان لى امرأة بينكم
وابنا فى قاعة الملك .

واذهب الى المصنع الذى شيدته لفيلاند
فستجد جثتين ملطختين بالدماء الحمراء ..
لقد قطعت رأسى الصبيين
والقيت اقدامهما فى حفرة الاغلال .

واخذت طاستى المخ من الجمجمتين تحت الشعر
وكفتهما بالفضة وأرسلتهما الى (نيدود) .
واتخذت من العيون أحجارا كريمة
أعطيتها لامرأة (نيدود) المحنكة الخبيرة .

ومن أسنان الاخوين جميعا
صغت حلية للصدر ارسلتها الى بودفيلد
وهاهى ذى ابنتكما الوحيدة
تسير وفى أحشائها جنين .

« لا أعرف كلمة اشد ايلاما لى
العنك بها وأتمنى لك بها أشد البلاء .
فليس من بين صناديدى طويل ينالك من فوق جواده
او قوى يضربك فيهوى بك الى الأرض ،
فأنت تحلق عند سحب السماء » .

وارتفع (فيلاند) ضاحكا فى الهواء ،
وتطلع اليه (نيدود) حزينا يلاحقه بنظراته ..

وهنا تكلم (نيدود) ، الملك النيارى :
هيا يا (تاكراد) ، أيها العبد العظيم ،
ابلغ (بودفيلد) ، السمراء ،
أن عليها أن تأتى فى زينتها العظيمة الى ابيها .

أصحيح يا (بودفيلد) ماقاله فيلاند :
اصحيح انك انفردت به فى الجزيرة ؟

« صحيح يانيدود ماقاله (فيلاند)
لقد انفردت به فى الجزيرة
فى ساعة نحس ، فياليت ماحدث لم يحدث !
لم يكن بيدى قط أن اردع فيلاند ،
ولم يكن بيدى أن أقهره . »

الباب الثانى

القصة فى عصر التبشير

كان للجرمان قبل المسيحية ديانتهم الوثنية ، وكانت لهم أخلاقهم التى ارتبطت بهذه الديانة على نحو ما . كانوا يؤمنون بأن هناك آلهة فوق البشر . ولكنهم على هيئة البشر . وكانوا يؤمنون بأن هناك عمالقة بينهم وبين الآلهة تناحر دائم ، وأن هذا التناحر سينتهى يوما فى معركة نهائية لصالح العمالقة ، فينتصرون ويندحر الآلهة . والآلهة والعمالقة يسكنون السماء والجبال . ويتسلط على الآلهة والعمالقة والبشر أيضا سلطان القدر الذى تمسك أمره ثلاث نساء عليمات هن النورنات . والقدر لا يرد بصلاة أو دعاء أو قربان وان كانت هناك نساء كاهنات يمكنهن تفسير أحكام القدر بالنظر الى الطير أو عيدان الرون . من بين الآلهة نذكر الدونار رب الحقل والمحصول والزواج والشرع والحرب ، وله مطرقة يرسل بها الصواعق فتدمر العدو . وأكبر الآلهة هو فوتان او أودين ، رب السحر والحكمة والحرب ، الأعور الجوال ، يستعين بالفالكيرات ، أو فتيات المعارك اللاتى يجمعن أرواح قتلى الأبطال ويذهبن بها الى نعيم الأبطال ، وينتظرن يوم المعركة النهائية فيقهرن العمالقة . وامرأة فوتان أسمها فريجا وهى ربة الحب والزواج وهى أم السماء . وهناك الى جانب الآلهة والعمالقة كائنات ، بعضها شريرة ، وبعضها خيرة ، من نوع الجن ، لها من السلطان فوق ما للانسان ، منها الايلفات والساحرات والأقزام والرجال الذئاب .

كذلك كان الجرمان يعتدون أشد الاعتداد بالشرف فى القتال ، ويضحون بكل شىء فى سبيله ، ولا يرضون بما يمسه من قريب أو بعيد. وكان المحاربون يخلصون أحدهم للآخر اخلاصا بلا حدود ، ولا يقبلون بحال من الأحوال رجوعا فى الكلمة أو حنثا باليمين أو خيانة للعهد . وكانت لهم فى المعارك شجاعة وغلظة .

وكانت لهم فى الانتقام والأخذ بالثأر صولات وجولات ، وما كانت

نفوسـهم ترضى بالتوفيق الا على مضض وعلى امـل سنوح فرصـة للانتقام .

وقد وجـدت هـذه الأخلاق تربة مواتيـة ترعرعت فيها تتمثل فى الصراع بين الجرمان والرومان تارة ثم فى أثناء تجوال الشعوب تارة أخرى . وقد شهدت هذه المنطقة هذا التجوال فى شعوبها نتيجة لزحف أمة الهون قادمة من الشرق البعيد . وكانت أمة عنيفة غاية العنف ، تهلك الحرث والنسل ولا تبقى ولا تذر . فخرب الهون مملكة قوط الشرق فى جنوب شرق أوروبا ، وانتحر ملكهم ارماناريش بسيفه . وتحرك قوط الغرب نحو الامبراطورية الرومانية ، ثم نحـو جاليا (فرنسـا الحالية تقريبـا) وأسبانيا ، ودارت معارك دامية بشعة . وكانت هذه الفترة بالذات هى الفترة التى انطلق فيها المبشرون لنشر المسيحية فى ربوع أوروبا . ومن اليسير أن يتصور الانسـان أن عمل المبشرين كان صعبا . لا للظروف العامة فحسب ، بل لأن الجرمان لم يسـهل عليهم التخلى عن ديانتهم وأخلاقهم .

كانت المسيحية تعلم التسـامح حيث اعتادوا على الانتقام . وتعلم التواضع حيث ألفوا التعالى . وكان للجرمان آلهتهم التى تتفق مع مفاهيم القوة والصرامة ، وتواكب حياتهم فى الحقـل والغـابة والميدان ، وكانت المسيحية تدعـو للاله الواحد ، وتبشر المتقين ، وتعلن الثواب والعقاب والجنة والنار ، وكل هـذا فى يد الله . حتى برزت أمة الفرنجـة من بين الجـرمان وتأهبت لدور كبير فى تكوين الثقافة الأوروبية ، ثم كان أن اعتنق المسيحية أحد ملوكها واسمه كلودفيج فى عام ٤٩٦ . فازدادت المسيحية انتشارا ، وفى الوقت نفسه زادت حدة المقاومة الوثنية . وقد سجل التاريخ على سبيل المثال أن ملك الفرنجة المشهور كارل الأكبر شارلمان ، شدد الوطأة على المناهضين للمسيحية ، وعاقب السكسونيين بقتل أربعة آلاف وخمسمائة رجل حتى رضى أمير السكسونيين فيدوكيند بقبول التعميد فى عام ٧٨٥ .

ومن هنا نفهم ما فعله المؤلف المجهول عندما ألف ملحمة (هيلاند) «المخلص» حول عام ٨٣٠ فى ٦٠٠٠ بيت من الشعر باللغة الألمانية القديمة، فهو لم يحك قصة المسيح كما وردت فى الأناجيل ، بل حاول أن يقرب المادة الانجيلية الى عقلية الجرمان ، فرسم صورة أخرى للمسيح ، وهو الراهب العليم باللاهوت ، فاذا المسيح فى كثير من المواضع ملك عظيم له قلعة منيعة وحصـون فى بيت لحـم ، وله رجاله من الصناديد والوجهاء

يمتطون ظهور الخيل ، ويقدرون عند الضرورة على المعارك والنزال .
يحكي مثلا قصة ضربة السيف التي سددها بطرس للخس :

فاستشاط غضبا
بطرس الجرىء ، البطل القوى ،
وثارت حميته ، ولم يستطع النطق بكلمة واحدة
من سوء ما في قلبه ، حتى أراد البعض
أن يقيده بالقيود . وذهب غضوبا ،
ذلك الفارس المغوار ، أمام الملك ،
يوقف أمام السيد يكاد يلمسه ، وقلبه لا يتردد
وصدره لا يتراجع . وسحب سيفه
من جنبه ، استعدادا للمعركة . وشل ضربة
العدو من الأمام بضربة من قبضته القوية .
ثم هوى حد السلاح القاطع على ملخس
فلون صدغه الأيمن باللون القاني
وقطع أذنه . هكذا أصاب الجرح رأسه
فتفجر الدم بعد ضربة السيف من خده وأذنه
وسال عن العظم منهمرا من الجرح العميق .

وتصف الملحمة كيف سيطر المسيح على العاصفة :

وأتى جمع غفير من غير اليهود الى المسيح
يريدون الاحتماء بالقوى العظيم والاستعانة به .
وأراد ابن الرب أن يركب البحر عند حدود الجليل
مع تلاميذه ، فوق الموج العارم

وترك الملك الجماعات الأخرى تسير طريقها
أما المسيح المنقذ فاستقل قاربا ومعه قليل من الرجال
لينام بعد أن أصابه التعب من التجوال البعيد
وبسط الرجال العليمون بالبحر الشراع

وتركوا الريح تدفعهم
حتى وصل الملك برجاله الى وسط الماء
وهنا ساء الجو وتقلب ، وهبت عاصفة عارمة
وعلت الأمواج ، وتزاحمت السحب السوداء .

وفار البحر . وتصارعت الرياح والمياه .
واستبد الخوف بالرجال ،
واستبدت الثورة بالبحر . وظن الرجال انهم هالكون جميعا
وأن أحدا منهم لن يبقى حيا ،
فأيقظوا سيد البلاد ، ونبهوه الى العاصفة الهوجاء ،
وتوسلوا أن يكون المسيح المخلص فى عونهم
وأن يفيء عليهم من منته ، والا فنحن هالكون فى هذا البحر
وسط العذاب الشديد ،
وقام ابن الرب المقدس وتحدث الى تلاميذه
وحضهم على أن يكفوا عن الخوف من الجو العاصف
وسألهم : « لماذا تخافون ؟ ما تزال عقيدتكم مزعزعة
وما يزال ايمانكم ضعيفا . لن تلبث الأمواج الثائرة أن تهدأ
وسرعان ما يصفو الجو . »
ثم خاطب الريح والبحر وأمرهما ان يسكنا ،
فأطاعا الأمر ، وخضعا لكلمة السيد ،
وهدأ الجو
وعاد السلام للماء . فاندهش الجمع
وتكلم البعض ، فتساءلوا عمن يكون هذا الرجل العزيز
الذى يأمر الريح والماء ، فيطيعان الأمر
ويخضعان للكلمة ،
هكذا أنقذهم ابن الرب من الخطر ،
واستأنف القارب العالى سيره
ووصل الرجال الى البر ،
وحمدوا الله وعظموه ...

ونقرا فى الملحمة وصفا لمقتل يوحنا المعمدان :

وحل فى أثناء العام يوم ملك اليهود
كما حسبه علماء الأمة ، اليوم الذى ولد فيه
ورأى نور الدنيا . وكان من عادة القوم
أن يحتفلوا بالمناسبة فيقيموا الولائم ،
وهكذا اجتمع فى القاعة عدد كبير من الرجال
وجاء الأمراء الى البيت

الذى جلس فيه سيدهم على العرش
وأتى كثير من اليهود الى القاعة
وكانوا فيها فرحين مسرورين ·
وكانوا يخطرون الى الساقى مبتهجين
وجاءت الخمر الى القاعة خالصة فى صحاف ،
وسارع السقاة هنا وهناك يحملون أوان من ذهب ·

وامتلأت القاعة بالمرح الصاخب
حيث كان الرجال يحتسون الخمر
وفكر حاكم البلاد كيف يتيح للقوم متعة اعظم

فامر بابنة اخيه ، وكانت بنتا خفيفة الظل ، أن تأتى
وكان يجلس على أريكة . ولقد لعبت الخمر برأسه ·
وتحدث مع الفتاة ، وحياها أمام الجمع الحاشد ، ورجاها
أن تقدم عرضا أمام الضيوف يزيد فرحهم وسرورهم ·

« دعى القوم يرون ما تتقنين من فن
حتى يسعدوا فوق أرائكهم ·
فاذا استجبت لرجائى الذى وجهته اليك أمام الجمع الحاشد
فاننى أعدك علنا ، وعلى رؤوس الأشهاد ،
وعدا لا أرجع فيه أبدا ،

أن أمنحك ما تطلبين منى أمام الأصدقاء ؛
حتى لو طلبت نصف سلطانى أو نصف مملكتى ،
ومهما حاول المحاولون ردى عن عزمى
فسيكون لك ما تريدين ·

فلبت الفتاة رجاء السيد
وقدمت بكل ما أوتيت من حس ووجدان
فى قاعة الاحتفال عرضا ، على عادة القوم
وعلى ما جرت طباعهم

فرقصت بحركات رشيقة مرحة
وأخذت تروح وتجىء ، راقصة ·
فسعد الحضور الكثار حسا ووجدانا ·

هكذا قدمت الفتاة للملك وضيوف الحفل جميعا ما سعدوا به
وحق لها أن تطلب الهدية الموعودة
أمام عيون الحاضرين .

وذهبت تشاور أمها .
فسألت أمها على عجل
ماذا تطلب من سيد المدينة
فأشارت عليها بأن تطلب ما تشتهيه نفسها
أمام أعين الضيوف المحتشدين

فلا تمنى عليه شيئا سوى رأس يوحنا
يؤتى به مفصولا عن جسده الى القاعة .
فتملك الحاضرين فزع أليم
حرك نفوس الرجال في أعماقها
عندما سمعوا طلب الفتاة .
وجرى على الملك ما جرى على الآخرين ،
ولكنه لم يستطع الى الرجوع في كلمته من سبيل .

وهكذا أمر واحدا من العبيد المحاربين
أن يبرح القاعة ليقتل بالأمر نبي الله .
وسرعان ما جاء رأس الرجل الجليل الى القاعة
وقدموه أمام الناس الى الفتاة ،
فحملته الى أمها .

كان ذلك اليوم يوم موت أحكم رجل
أتى الى الدنيا في كل الأزمان
أحكم رجل وضعته امرأة تزوجت من رجل
اذا غضضنا النظر عن ذلك
الذي حملته العذراء مريم

التي لم تسلم نفسها طيلة حياتها لرجل
ولم تلتقي الا بالروح القدس بأمر الله
مالك السموات العزيز القوي .

أما يوحنا فلا يقارن به انسان فيما انقضى أو فيما يأتى من زمان ٠
وجاء رجال من حى يوحنا ، وكثيرون من تلاميذه

جماعة باركها الله ، فدفنوا فى الرمال
جثمان الرجل الجليل ، وكانوا يعلمون
انه سينال نور الله ، ونعيم حياة السماء
ومستقر النعيم المقيم هو وسيده
وقد سلك الى ذلك سبيل الايمان القويم ٠

الباب الثالث
الملحمة الشعبية

الملحمة الشعبية فى العصر الوسيط

لعب كارل الأكبر المعروف باسم شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) دورا كبيرا فى نشر المسيحية وتثبيت أركانها . وأنشأ حول الأديرة مراكز ثقافية كانت مهمتها الأولى رعاية الثقافة الجديدة ومحاولة نقلها الى اللغة الألمانية (القديمة) . وكان النقل يعني الاهتمام باللغة لفظا ونحوا وتراثا . وقد سجل التاريخ انه أمر بوضع نحو للغة الألمانية وأنه أمر بجمع أناشيد أو قصص الأبطال . ولو بقيت هذه الأعمال لكانت شيئا هاما ، ولكنها ضاعت عندما أعدمها لودفيج التقى (٧٧٨ ـ ٨٤٠) ابن شارلمان ظنا منه أنها بمضمونها الوثنى ستضر الناس فى دينهم الجديد . ولكن الأدب الشعبي حفظ كثيرا من التراث القصصى القديم ، وغير فيه وعدله . فاندمجت بعض القصص معا فى قصة واحدة . وانتقلت بعض القصص من اطارها الثقافى الوثنى الى اطار فيه شيء من المسيحية ، ودخلت عناصر كثيرة وافدة من بيئات ثقافية مختلفة ، وواكب الاسلوب العصر ، حتى اذا أخذت القصة الشعبية الشفهية طريقها الى الكتابة ثبتت وتجمدت .

ومن أشهر الملاحم الشعبية الألمانية التى انتشرت فى العصر الوسيط انتشارا كبيرا :

ملحمة النيبلونجن الضخمة

تكونت الصياغة « المدونة » لملحمة أو أنشودة النيبلونجن أو النيبلو نجليد حول عام ١٢٠٠ فى المناطق الجنوبية من ألمانيا أو النمسا . والنص عبارة عن ٣٩ فصلا (تسمى مغامرات) . وهو على هيئة رباعيات تزيد بكثير على ألفى رباعية ، أى أن الملحمة تكاد أن تصل الى عشرة آلاف بيت . والأرجح أن كلمة النيبلونجن مشتقة من « نيبل » وهو ملك أسطورى على بلد أسطورى . ويستفاد من الأساطير ان النيبلونجن كانوا يمتلكون

كنزا هائلا . وتشير كلمة النيبلونجن فى الجزء الثانى من الملحمة الى البورجوند وهم أمة تفرعت عن الفندال (أو الوندال) كانت لها دولة فى القرن الثالث الميلادى حول مدينة فورمس . ثم أتى الهون وخربوها فى عام ٤٣٧ . وكانت هذه العملية العسكرية عنيفة جدا . ويكفى أن نذكر انها أتت على أهل الملك جميعا .

وقد اختلطت بالمادة القصصية الضخمة التى تعالجها الملحمه مادة أسطورية قديمة حول شخصية زيجفريد أو زيجورد الذى صارع التنين ، حارس كنز النيبلونجن ، فقتله . وسمع منه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن الكنز موسوم بلعنة الآلهة . لا يحصل عليه أحد الا وتحل به المصائب . وشرب زيجورد من دم التنين وعلم لغة الطير ، ثم سار فالتقى ببرونهيلدة تعاهدها على الزواج . ثم التقى بجودرون وتزوج منها بعد أن سقته شرابا سحريا من صنع أمها كريمهيلده . وتورط زيجورد فى خدعة جلبت عليه الوبال . فقد تقمص شخصية جونار ، أخى جودرن ، واجتاز النار فقبلت برونهيلده أن تتزوجه . وهكذا تزوج جونار بالخديعة . فلما تكشفت الحقيقة دارت معارك ثأر رهيبة ، هلك فيها الجميع . هذا المادة الأسطورية نلتقى بها فى قصة شعرية بعنوان « نشيد زيجورد القديم » فى مجموعة الايدا التى أشرنا اليها من قبل .

نشيد زيجورد القديم

عقد زيجورد ، قاتل التنين ، حلف الأخوة مع جونار وهوجنى ، ابنى الملك جيوكى . وتزوج اختهما جودرون . وكان جونار قد بيت النية على أن يطلب يد برونهيلد التى آقسمت ألا تتزوج الا ممن يقهر نيرانها المستعرة . فوعده زيجورد بأن يقدم اليه العون فلما حاول جونار اجتياز النار دون جدوى . أعاره زيجورد جواده . ولكن الجواد كبا . وهنا تقمص زيجورد شخصية جونار .

كانت النار تتأجج . وكانت الأرض تتوهج
وألسنة اللهب ترتفع الى عنان السماء .
فلم يجروء واحد من مرافقى الملك
على اجتيازها ممتطيا صهوة جواده .

ولكز زيجورد حصانه « جرانى » لكزة بسيفه « جرام » ،
بذلك السلاح الذى صنعه الحداد ريجين .

فهبطت النار أمام الأمير ابن الأمراء
وخبت ألسنتها أمام الرجل الجدير بالمدح .

وتقدم زيجورد وسمى نفسه جونار . هنالك استبد اليأس برونهيلدة وحزنت . ولكنها قبلت الزواج تمسكا منها بوعدها ، وقاسمته الفراش ثلاث ليال . وهو يضع سيفه اللامع بينهما ، وكلما سألته عن السبب ، قال لها انه كتب عليه أن يتزوج هكذا أو يموت . ثم تبادلا الخواتم . وعاد الى رهطه ، واتخذ كل شخصيته ، وسلكوا سبيلهم الى بلاط الملك . وأعطى زيجورد خاتم برونهيلد لزوجه جودرون .

وتمضي الأيام ، ويحـــدث أن تتشاجر جوردون وبرونهيلده وهما تستحمان في النهر ، وتختلفان في قدر رجليهما وفي أيها يمتاز على الآخر . وتكاشف جودرون غريمتها بأن زيجورد هو الذى شق النـار المستعرة ، وقاسمها الفراش ، وتريها الخاتم شاهدا على كلامها . فتتسمر برونهيلد شاحبة كأنها قضت نحبها ، وتصوم عن الكلام اليوم كله .

فلما سألها جونار عن سبب آلامها ، قالت له انهـــا قد علمت كل شيء . لقد خانها زيجورد وخانه عندما قاسمها الفراش ، وهي لاتريد أن يـكون لها رجـلان يظلهما سقف قاعة واحدة . « فاما أن يموت زيجورد أو أموت أنا » .

فقرر جونار أن يهلك زيجورد . فلما فاتح أخاه هوجني في ذلك قال هوجني :

« هل ارتكب زيجورد جرما يوجب التكفير ،
حتى تروم قتله وهو الرجل الباسل الشجاع ؟ »

جونـار :

« لقد أقسم الرجل النبيل أيمانا ،
ثم حنث بالأيمان كلها .
لقد خانني بدلا من أن يخلص لى ،
وكان الأحرى به أن يحفظ العهود جميعا . »

هوجني :

« لقد حرضتك برونهيلد على كبيرة من الكبائر
وأشعلت الحقد نارا ، وأيقظت فتنة كانت نائمة :
انها لا ترتاح لبقاء جوردون مع زوجها .
ولا تريد أن تظل زوجة لك . »

نقطعوا الدودة ، وطهوا لحم الذئب ،
وقدموا لجوتورم لحم الذئب « جيرى » طعاما .
قبل أن يشتد ساعدهم على التآمر
ويقدروا على بسط أيديهم لقتل البطل النابه .

وخر (زيجورد) جنوبى الراين صريعا .
وصاح الغراب من فوق الشجرة :
« لسوف تحمر سيوف أتلى بدمائكم .
والقاتل تقتله الخيانة » .

وكانت جودرون ، ابنة جيوكى ، تقف فى الخارج
فتكلمت ، وكانت كلمتها الأولى :
« أين تركتم زيجورد البطل الأمير ،
فهؤلاء أصدقائى أراهم يمتطون جيادهم فى الطليعة ؟ »

فسكتوا جميعا عندما سمعوا كلامها .
الا هوجنى رد عليها قائلا :
« لقد قتلنا البطل ،
وهذا هو الحصان يميل برأسه على جثمان سيده » .

فضحكت برونهيلده من أعماق قلبها ، ضحكتها الأخيرة .
ودوى الصدى فى جنبات البيت :
« آن لكم آن تحكموا البلاد والرجال طويلا ،
بعد أن قتلتم الأمير الجسور » .

فقالت جودرون ، ابنة جيوكى :
« لقد نطقت نطقا فظيعا بكلام أثيم .
ليقعن جونار القاتل فى يد الأرواح .
وليكونن الثار جزاء العمل المشين » .

فتكلمت برونهيلده ، ابنة بودلى :
« بل احملوا السلاح واحكموا البلاد .
ولو أنكم تركتم زيجفريد يعيش ،
لآل الأمر كله اليه .

ولجللكم عار ما بعده عار .

كان هو الذى سيحكم ملك جيوكى وأمة القوط .
وهناك خمسة أبناء مغاوير
أنجبهم الملك ليحكموا الشعب ، .

وجن النيل . وشربوا ما شاءوا
وتبادلوا من الحديث أطرفه وأطالوا .
ثم ناموا جميعا ، عندما آووا الى الفراش .
الا جونار . تملكه الارق . فلم يغمض له جفن .

كان يحرك قدمه . ولا يكف عن الكلام .
ويفكر صاغرا بغير انقطاع
فيما قاله الغراب والنسر
من فوق الشجرة ، عندما قفلوا راجعين .

وصحت برونهيلد . ابنة بودلى ،
سليلة الأمراء ، مبكرة قبل طلوع النهار :
لقد وقعت الواقعة ، فماذا يقدم أو يؤخر ،
أن أثرنا الألم أو تركناه » .

سمع الجميع هذه الكلمات وهم صامتون ،
وفهم القليلون طبيعة المرأة
عندما تكلمت هذه عن الفعلة
التى أغرت بها الرجال وهى تضحك .

« أى جونار ، لقد رأيت فى المنام شيئا فظيعا .
رأيت القاعة باردة ومخدعى رطبا .
رأيتك . يا أمير ، على ظهر الحصان حزينا
يحملك الى جيش الأعداء . والاغلال حول قدمك .

هكذا يندحر النيلونجن
وتفنى أمتهم العظمية : لانكم تعاهدتم على الخيانة .

أتراك ياجونار قد نسيت ولم تعد تذكر
أن دمكما معا كان يخضب بقطراته أماكن العراك .

فبئس الجزاء هذا الذى أنزلته به !
وما كان فى الملمات الا سباقا مكينا .

ولقد علم البطل عندما أتى جريئا
ممتطيا صهوة حصانه ، يطلب يدى
بأى حزم يصون حامى الأمة
كل ميثاق ويمين حيال المليك الصغير .

لقد التمس سيفه القاطع ، الموشى بالذهب ،
ووضعه بيننا ، وهكذا فعل الأمير النبيل .
وكان سيفا صقل حداه القاطعان فى النار
وكوى بطنه بالسم الزعاف » .

النيبيلونجنليد
أو أنشودة النيبيلونجن

(زيجفريد) بطل شجاع من سلالة ملوك (اكسانتن) الواقعة على نهر الراين . صارع أقزام (النيبيلونجن) وانتصر عليهم ، واستولى على كنز النيبيلونجن الثمين بعد أن قتل التنين القائم على حراسته ، واغتسل بدمه ، فاكتسى جسمه كله بطبقة صلدة لا تنفذ منها الرماح أو السيوف . الا بقعة صغيرة بين كتفيه كانت ورقة من أوراق الشجر قد وقعت عليها فظلت على حالها . كذلك كانت لزيجفريد خوذة اخفاء . اذا لبسها عجزت الأبصار عن ادراكه . وزادت قوته هو فأصبحت تساوى قوة عصبة من الرجال أولى القوة .

وكانت تعيش فى مدينة (فورمس) الحسناء (كريمهيلد) مع اخوتها الملوك الثلاثة : (جونتر) و (جرنوت) و (جيزلهر) . وذهب زيجفريد مع حاشية عظيمة لطلب يدها . فلقى استقبالا حارا . ونزل ضيفا على البورجوند ، وساعدهم فى معركتهم ضد السكسون حتى ظهروا عليهم . وكانت برونهيلدة امرأة عظيمة الجمال ، عظيمة القوة ، تشترط فيمن يتزوجها أن يبرز عليها فى رمى الرمح والقفز . ولم يكن جونتر يستطيع أن يحقق شيئا من هـذا . فساعده زيجفريد خفيـة مستعينا بخوذته العجيبة . ونجحت المهمة . وحصل جونتر على برونهيلدة ، وعاد بها الى

فورمس وهى تحس بأن خدعة ما قد دبرت لها . وأقيم حفلان للاحتفال بزيجتين : فقد زفت كريمهيلدة الى زيجفريد وزفت برونهيلدة الى جونتر . وفيما زيجفريد يتحدث الى زوجه كريمهيلدة عن قوته وأعماله الرائعة ، حكى لها كيف خدع برونهيلدة وغلبها ، وأعطى زوجه الدليل على صدق قوله : حزام برونهيلدة وخاتمها ، كان قد احتفظ بهما بعد أن حصل عليهما جائزة على غلبتها . وذهب زيجفريد وكريمهيلدة الى مملكته على الراين حيث عاشا عيشة رغدة . وحدث أن تلقيا ذات يوم دعوة من جونتر لحضور حفل عظيم يقام فى فورمس . فلبيا الدعوة وذهبا الى هناك . واختلفت الملكتان برونهيلدة وكريمهيلدة فيمن تكون له الصدارة فى الحفل . فذهبت برونهيلدة الى أن جونتر هو الأحق بالصدارة واستشهدت بما قاله لها زيجفريد عندما قدم نفسه اليها فى ايزنشتاين ، هناك قال انه من عمال جونتر والمؤتمرين بأمره . فما كان من كريمهيلدة الا أن كشفت فى سورة من الغضب العارم السر الرهيب وأكدته بالدليل : الحزام والخاتم .

وثارت ثائرة برونهيلدة ووصمت زيجفريد بأبشع الصفات وسعت للانتقام منه ، وبحثت عمن ينفذ مأربها . فتقدم اليها هاجن ووعدها باغتيال زيجفريد . ونفذ وعده ، وقتل زيجفريد غيلة بضربة سددها اليه فى الموضع المكشوف بين كتفيه ، وهو يهم بالشرب . وحمل هاجن جثة زيجفريد الى باب كريمهيلدة . وذهب الى كنز النيبلونجن فأغرقه فى نهر الراين .

وظلت كريمهيلدة ثلاثة عشر عاما تدبر للانتقام لا تفكر الا فيه ، ولا تحس الا به . حتى تحولت الى امرأة فظيعة . فلما تقدم ملك الهون اتسل يخطبها ، قبلت شريطة أن ينتقم لها من هاجن . وانقضت ثلاثة عشر عاما أخرى ووجه اتسل الى البورجونديين دعوة للحضور اليه والمشاركة فى حفل عظيم . فأتوا وفيهم جرنوت وجونتر وجيزلهر وهاجن واخوته . وما ينقضى اليوم الأول حتى ينقض الهوان على ضيوفهم البورجوند ، وتسيل الدماء أنهارا . ويقع جونتر وهاجن فى الأسر ، فتسجنهما كريمهيلدة . وتحاول كريمهيلدة أن تعرف من هاجن المكان الذى أغرق فيه كنز النيبلونجن ، فيرد عليها بأنه أقسم ألا يتكلم طالما بقى سيد من سادته على قيد الحياة ، فتأمر بقطع رأس أخيها جونتر ، وتحمل الرأس الى هاجن ، فيصمم على الصمت . فتقتله بسيف زيجفريد . أما كريمهيلدة نفسها فتلقى حتفها على يد هيلديبراند .

يبدأ النشيد هكذا :

لقد نقلت لنا الأخبار القديمة قصصا عجيبة كثيرة

عن أبطال صناديد ، وبطولات رائعة ،

عن أفراح واحتفالات ، ودموع وآهات ·

فاسمعوا عجبا عن معارك الرجال الأفذاذ ·

شبت في البورجوند صبية كريمة

لا مثيل لجمالها في البلاد جميعا

اسمها كريمهيلدة · كانت امرأة حسناء

مات من أجلها الأبطال زرافات ووحدانا ·

وكان حريا بالحسناء الحبيبة أن يسعى لحبها الساعون ·

أحبها الكثيرون من الأبطال المغاوير ، ولم يكرهها منهم أحد ·

كان لها قد كريم ، وكان جمالها يفوق كل حدود ،

وكانت فضائل العذارى لها حلية وزينة ·

كان يعولها ثلاثة ملوك كرام أغنياء :

جونتر وجرنوت ، الرجلان العظيمان

وجيزلهر ، أصغرهم ، ذلك الفارس المختار ·

كانت الفتاة أختهم ، وكانوا هم أوصياء عليها ·

كان السادة كراما ، أبناء حسب رفيع ،

قوتهم فوق كل قوة ، وجرأتهم أعظم من كل جرأة ·

كان هؤلاء الأبطال خيرة أهل البورجوند ، والبورجوند اسم بلادهم ·

وكانت لهم أعمال خارقة للمألوف فى بلاد « اتسل » ·

كانوا يقيمون في فورمس على الراين بقوتهم العظيمة

وكان كثير من الفرسان المغاوير قد استقروا لديهم

يخدمونهم وينالون الى يوم يقضون شرفا وجدارة ·

ثم تصارعت امرأتان كريمتان فأودى الصراع بهم جميعا ·

وكانت أمهم ملكة ذات ثراء وجرأة ، تلك هى الملكة « أوته »

وكان أبوهم الملك دنكرات ، هو الذى ورثوا الملك عنه

بعد مماته ، وكان رجلا قويا عظيما ،

نال فى شبابه فى صولاته وجولاته شرفا وعزة ·

كان الملوك الثلاثة ، كما حكيت .
رجالا حظهم من القوة عظيم . يأتمر بأمرهم الأبطال
احسن الأبطال ، قيل عنهم انهم أقوياء
وانهم شجعان لا يترددون فى أعنف المعارك .

وتصف المغامرة السادسة رحلة جونتر الى ايزنشتاين تطلب يد برونهيلدة . ولقد التمس جونتر من أخته كريمهيلدة أن تقوم بمهمة اعداد الثياب والحلل حتى يظهر البورجوند فى أبهى مظهر ، فودعت أخاها ومن معه وبدأت العمل :

وانصرف الأبطال بعد وداع جميل
واستدعت ثلاثين من الفتيات
نادت عليهن الملكة كريمهيلدة من حجرتها
فتيات لهن فى هذه الفنون مهارة وبراعة .

تناولن حريرا عربيا أبيض كالثلوج
وحريرا من (زازامنك) أخضر فى لون البرسيم
رصعنه بالأحجار الكريمة ، فاكتملت الثياب بهاءا ،
وهى التى قصت قماشها بيدها كريمهيلده الفتاة الرائعة .

أما البطائن فاتخذت من جلود الأسماك الغريبة
ولقد دهش الناس لكثرة ما جمع منها .
ثم وشيت البطائن بالحرير ، وهكذا أعدت الثياب
ثيابا براقة ، أسمع بها وأبصر !

من مراكش ومن ليبيا
جلبوا أحسن حرير فى الدنيا
يليق بالملوك أولاد الملوك ، وجلبوا منه الكثير الكثير .
فقد أرادت كريمهيلده أن تبين نبل احساسها .

ولما كانت السفارة المزمعة سفارة رفيعة
فقد لاحت لهن التوشية بفراء النمس دون ما يشتهين ،
فوشين كل ظاهر بمخمل أسود بلون الكحل
يليق بالأبطال المغاوير فى كل حفل عظيم .

وتلألأت الأحجار الكريمة فوق الذهب العربى ٠
ولم تبخل الفتيات بالجهد ، ولم يتقاعسن
فتمت الثياب فى سبعة أسابيع ٠
واكتمل فى الوقت نفسه اعداد السلاح للرجال الشجعان ٠

أما الشجار الذى نشب بين كريمهيلدة وبرونهيلدة فقد سار على النحو التالى :

فاتت كريمهيلده ومعها رجال صناديد ٠
وقالت لها امرأة جونتر : أريد تفسيرا وتوضيحا ٠
انك تتهميننى بأننى فاجرة ٠ فبينى لى حقيقة اتهامك ٠
تدمى الى الدليل على ما وصمتنى من فجور » ٠

فقالت الحسناء كريمهيلده : « على رسلك ٠
الدليل هو الخاتم الذى ترينه فى أصبعى ٠
أتانى به حبيبى بعد أن قاسمك الفراش » ٠
وظنت برونهيلده أن أجمل أيامها قد بزغ فجره ٠

« هذا الخاتم أعرفه حق المعرفة ، لقد سرقه لص من اللصوص »
هكذا كان رد امرأة جونتر ٠ ثم قالت : « لقد افتقدته منذ زمن طويل ٠
وهأنا ذى أعرف من سرقه منى » ٠
وثارت ثائرة المرأتين ٠

وتكلمت كريمهيلدة : « لست لصة ٠
كان الأحرى بك أن تدعى كل مستور مستورا وأن تسكتى ٠
اليك البرهان بعد البرهان ، هذا الحزام الذى أتمنطق به ٠
أنا لست كاذبة : لقد كان زيجفريد أول رجل فى حياتك » ٠

كانت كريمهيلده تتمنطق بحزام من حرير نينوى
مرصع بالجواهر النفيسة ، حزام ثمين عظيم ٠
فلما رأت برونهيلده الحزام طفقت تبكى ٠
وعلم جونتر الخبر ، وعلمه رجال الملك جميعا » ٠

وتحكى المغامرة الثالثة والثلاثين عن المذبحة الرهيبة التى رد بها
البورجوند على ما فعله الهون برجالهم .

قال هاجن : « لقد دهشت غاية الدهشة
وأنا أرى رجال الهون هنا يتهامسون .
لعلهم يدبرون للتخلص من الرجل الذى يحرس الباب
والذى حمل الى البورجوند الخبر المشئوم .

لقد سمعت كريمهيلده منذ زمن طويل تقول
انها لم تعد تطيق الصبر على ما في قلبها من ألم .
فهيا بنا نشرب فى ذكرى المرحوم ، ونضحى بنبيذ الملك .
وليكن أمير الهون الصغير أول القتلى .

وسدد هاجن ضربة الى الصغير أورتليب
فتفجر الدم وانساب من فوق السيف على يديه
وطار رأس القتيل فاستقر فى حجر أمه الملكة .
ودار قتال رهيب بين الرجال .

وأسرع هاجن فسدد ضربة الى مربى الصبى ،
ضربة سريعة سددها الى المربى الذى كان يقوم على شأن الصبى ،
فتدحرج رأسه من فوق المنضدة الى الارض .
ونال المربى جزاء أسوأ به من جزاء !

ولمح هاجن عازف الكمان يجلس الى مائدة اتسل ،
فعاجله ، وقد استبد به غضب محموم ،
بضربة قطعت يمناه وهى على قوس الكمان
وقال له : « هذا جزاء سفارتك الى بلاد البورجوند » .

فقال فربل عازف الكمان : « وأسفى على يمينى ،
ماذا فعلت بك يا سيد هاجن حتى تبتر يدى ؟

لقد أتيت الى بلادكم ، بلاد السادة ، وما فى قلبى من النوايا الا أحسنها.
وكيف أخرج الآن من الأوتار أنغامها ، وقد ضاعت يمينى ؟

ولم يعبأ هاجن بالعازف ، يقدر أن يعجز عن العزف .
وصال فى أرجاء البيت ، ينزل الفظائع تلو الفظائع
برجال اتسل ، فقطع الرقاب ودق الأعناق ،
وفتك فى البيت بالكثيرين

الجودرونليد
أو أنشودة جودرون

واذا كانت القصة الشعرية الكبيرة « النيبلونجليد » قد لقيت من الشهرة فى زمانها وفى العصور التالية الى يومنا هذا من الشهرة الشىء الكثير ، وأثرت على الكتاب والفنانين والمفكرين ، فان معاصرتها القصة الشعرية « الجودرونليد » لم تبلغ أسهمها هذا المدى ، وان ظلت عملا من الأعمال القصصية الشعبية العظيمة ، اختلطت فيه على نحو أكبر عناصر من التراث الأسطورى الجرمانى القديم ومن الثقافة المسيحية الجديدة . ويعتقد العلماء أن النص المكتوب قد نشأ فى جنوب ألمانيا أو النمسا فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر ، ربما فى العقد الثالث أو مطلع العقد الرابع . ويتكون النص من أكثر من ١٧٠٠ رباعية .

وتحكى هذه القصة الشعرية عن الأمير هاجن الذى خطفه طائر من طيور العنقاء وألقى به الى جزيرة كانت طيور العنقاء الضخمة قد ألقت بها ثلاث أميرات . فتزوج هاجن من أجملهن ، الأميرة هيلدة ، ورزق منها بطفلة أسمياها هيلدة أيضا . فلما كبرت هيلدة أرسل الملك (هيتل) ملك (الهيجلينجن) ثلاثة من رجال متنكرين على هيئة تجار اختطفوها بالحيلة ، فلاحقهم هاجن ، ونشبت معركة حامية بين رجاله ورجال (هيتل) . وأخيرا ظهرت (هيلدة) مرة أخرى ، واستطاعت أن تهدىء ثورة الأب ، وأن تقنعه بأن يقبل زواجها من هيتل . ورزق الملك هيتل من هيلدة بولد وبنت : الأمير أورتفين والأميرة جودرون . فلما شبت الأميرة (جودرون) أتى اثنان من الأمراء كل منهما يريدها زوجا له : (هرفيج) أمير (زيلاند) و (هارتموت) ابن الملك (لودفيج) ، ملك (أورمانيا) . وفضلت الأميرة (جودرون) (هرفيج) على (هارتموت) ، فما كان من (هارتموت) الا أن خطفها . وقامت معركة كبيرة بين الطرفين . وانتهز (هارتموت) فرصة حلول الليل فهرب فى الظلام بجودرون الى بلاده . ولم يستطع هرفيج أن يخرج للانتقام على الفور لأن جيشه كان قد ضعف بعد موت الكثيرين من أبطاله ، فآثر الانتظار والاستعداد الدءوب . أما

جودرون فقد ذاقت الأمرين فى أورمانيا ، حيث تولت الملكة جرليندة ، أم هارتموت الانتقام منها ، وتأديبها على رفضها الزواج من ابنها ، فكلفتها طوال سنوات بأشق الأعمال وأصعبها · وأخيرا حانت ساعة الخلاص فأتى هرفيج ومعه عصبة من الأبطال الصناديد ، من أمثال (أورتفين) أخى (جوردون) و (فاطه) ، فنزلوا من سفينتهم الى الجزيرة وحرروا جوردون ·

ولا تنتهى القصة بحمام من الدم على نحو ما انتهت قصة النيبلونجن ، بل تنتهى بالتسامح والعفو ولم الشمل · فقد تزوج هرفيج من جودرون ، وتدخلت جودرون لدى أمها وأخيها ، فتزوج أخوها أورتفين الأميرة أورترون أخت هارتموت ، ووجد هارتموت فى احدى صديقات جودرون ، هيلدبورج ، ضالته المنشودة فتزوجها ·

ومن أشهر فصول القصة الشعرية تلك التى تصف معاناة جوردون وما ذاقته من ذل وهوان على يد الملكة جرليندة :

اسمعوا حكايات غريبة عن هذه المحنة الأليمة :
كان على جوردون أن تقوم بكل ما يطلب اليها من أعمال
لا يكلف بها الا أكثر الخدم بؤسا ·
وهكذا لم تنعم فى بلاد أورمانيا بشىء من حسبها العريض ·

أعمال حقيرة ، هذه هى الحقيقة التى لابد أن تقال ،
ظلت الأميرة ورفيقاتها تقوم بها أربعة أعوام ونصف العام
حتى عاد هارتموت من ثلاث غزوات
الى وطنه مرة أخرى · وكانت الفتيات عاكفات على الخدمة الذليلة كاليتيمات ·

وطالب هارتموت أن تمثل الفتاة الكريمة بين يديه :
فرأى على هيئة الأميرة سليلة الحسب والنسب
أنها لم تنل من الراحة والطعام الجيد الا النذر اليسير ·
لقد كانوا يعاقبونها على ثباتها على الفضيلة ·

فلما أقبلت عليه ، قال لها الملك الشاب :
« أى جودرون ، أيتها الحسناء ، هل كنت تنعمين بالراحة
منذ خرجت ورجالى المغاوير من هذه البلاد محاربين ؟

فقالت : « لقد تحتم على أن أقوم بأعمال الخدم ، وانكم لتحملون الذنب والعـــار » .

فقال هارتموت لأمه : « ما هذا الذى فعلته
أى جيرليندة ، يا أمى العزيزة ؟ لقد تركت الأميرة
فى رعايتك وتحت رحمتك ، وكنت آمل أن تخفف أحزانها
من كل الوجوه فى هذه البلاد .

فتكلمت المرأة الذئبة : « كيف كان يمكننى أن احسن اليها
بنت هيتل ؟ عليك أن تعرف الحقيقة :
لقد حاولت بدون جدوى ، بالترغيب تارة ، وبالترهيب تارة أخرى ،
أن أصرفها عن ذمك وذم أبيك وأهلك جميعا .

ثم ذهبت جيرلنده الى حيث جلست جودرون ،
وقالت للأميرة سليلة الهيجلنجن :
« ما دمت أيتها الحسناء لا تريدين العدول عن أفكارك
فعليك أن تكنسي بشعرك التراب من فوق الكراسي والأرائك .

أما حجراتى ، فاسمعى كلامى جيدا ،
عليك أن تنظفيها بالمقشة ثلاث مرات يوميا
وأن توقدى لى النار فيها فى المدفأة » .
فقالت : « اننى أفضل أن أفعل هذا كله على أن أحب غير حبيبى » .

وقالت لها الذئبة العجوز بصوت حقود :
أريد أن تقوم بنت هيلدة بخدمتى
واذا كانت فى سفاهتها تظن أنها صلبة الارادة
فعليها أن تخدمنى كما لم تفعل من قبل » .

فقالت الأميرة الكريمة : سأقوم بكل الأعمال
التى تفرض على بكل ما أوتيت من جهد
ومن قوة وارادة ، فى كل وقت ، ليلا ونهارا ،
حرمنى النحس من البقاء عند أحبابى .

فقالت جيرلندة القبيحة : « عليك أن تأخذى ثيابى

كل يوم الى الشاطىء الرملى هناك
فتغسليها وتغسلى كذلك ثيابى خدمى وحشمى ،
وحذار أن يراك أحد وقد تقاعست لحظة عن العمل ٠

فقالت الأميرة الكريمة : « أيتها الملكة الجليلة العظيمة
أتينى بمن يعلمنى ويدربنى
حتى تتمرس يداى على العمل ، وأعرف كيف أغسل ثيابك ٠
ولست أنتظر منك ما يسعدنى ، بل لقد كنت أتوقع المزيد من السوء ٠

وما دمت تكلفيننى بالغسيل ، فآتينى بمن يعلمنى ؛
وأنا لا أترفع ، ولا أتكبر ، وأخالنى أستطيع القيام بالعمل بما يرضيك
فقد أصبح على أن كسب بكدى قوت يومى
ولست أمتنع أو أتمنع ٠ وهكذا عرفت جوردون المسكينة كيف تتصرف بحكمة كبيرة ٠

فلما تدخلت رفيقتها هيلديبورج لتواسى جوردون وتساعدها ، اغتاظت الملكة جيرلنده منها وقست عليها هى الأخرى :

« فقالت الملكة جيرلنده القبيحة : « هكذا تستنزلين على نفسك السوء أشد السوء ٠

سيكون عليك مهما اشتد برد الشتاء أن تخرجى الى حيث تتساقط الثلوج
وأن تغسلى الثياب وسط الرياح القارسة
حيث كنت تتمنين أن تلوذى بحجرة دافئة ٠

الباب الرابع

القصة الشعرية بين التسلية والتربية

كان رجال الدين من قساوسة ورهبان هم حملة الثقافة على نحو ما ذكرنا من قبل ، وظلوا يؤدون دورهم الثقافي قرونا عدة ، وتركوا لنا في العصر الممتد من القرن التاسع الميلادى الى القرن الثانى عشر تراثا قصصيا يغلب عليه طابع التربية الدينية ، انصب في قالب القصة الشعرية التي سميت أناشيد لأنها كانت تتلى كما تتلى الأناشيد ـ نذكر على سبيل المثال أنشودة بطرس (٨٨٥) التى تحكى عن بطرس الرسول وأنشودة جيورج (٨٩٦) التى تحكى حياة القديس جرجس أو مارجرجس وتعتمد على شخصية حقيقية هى شخصية المطران جرجس الذى كان مطرانا في الاسكندرية فى منتصف القرن الرابع الميلادى ومات على أيدى أعدائه ، ثم خرجت القصة من مصر وانتشرت في مناطق مختلفة من العالم المسيحى ، وعرفت فى ألمانيا حيث أنشئت كنيسة تحمل اسمه فى الوقت الذى نشأت فيه القصة الشعرية • والقديس جيورج الذى نلتقى به فى القصة الألمانية لا يصارع التنين ولكنه يقوم بمعجزات من نوع آخر ، فهو يقوم من الموت ثلاث مرات ، كلما قتله ملك الكفار عاد الى الحياة ، وقام بمعجزات تؤدى الى دخول الناس فى المسيحية حتى تدخل الملكة نفسها فى المسيحية •

أنشودة جيورج

وذهب جيورج تحوطه عصبة كبيرة الى المحكمة ·
وخرج من المدينة الى المحكمة ومعه شعب كثير
الى الاجتماع الهام العظيم
وكانت المحكمة أريبة ، محبة للرب الى أقصى حد ·
وهكذا خرج جيورج من الدنيا ونال ملكوت السموات ·
وهذا هو ما فعله حقا السيد جيورج الشهير ·

وتحدث اليه الملوك وكانوا كثيرين
كانوا يريدون رده عن دينه ، فلم يشأ أن يسمع لهم
وظل ثابت الجأش ، لا يطيع لهم أمرا · وأنا أحكى عن خلاصه ·
لقد فعل كل ما طلب من الرب أن يمكنه من فعله ·
وهذا هو ما فعله حقا السيد جيورج الشهير ·

فأدانوه وألقوا به على الفور فى السجن
وصحبه الى هناك ملائكة يجلوهم البهاء والسناء
ووجد فى السجن امرأتين حكموا عليهما بالموت فأنقذهما ·
وأعد بعون الرب طعاما على نحو عجيب
ولقد فعل جيورج حقا هذه المعجزة ·

توسل جيورج الى الرب ، فاستجاب له ،
ومنحه الله كل ما طلبه منه ،
وهكذا جعل البكم يتكلمون ، والصم يسمعون ،
والعميان يبصرون ، والمشلولين يمشون ·
وكان هناك عمود يقوم منذ أعوام ، فجعل الورق الأخضر ينبت عليه ·
ولقد فعل جيورج هذه المعجزة حقا ·

ولهذا اغتاظ الحاكم أشد الغيظ
نعم لقد استبد بتاقيان الغضوب غيظ ما بعده غيظ

وقال ان جيورج ساحر
وأمر بجيورج أن يقبض عليه وأن يجرد من ثيابه
وهوى عليه بسيف حاد قاطع بتار ·
وأنا أعرف عن يقين أن هذه هي الحقيقة : لقد قام جيورج من الموت
قام جيورج من الموت ، وألقى عظاته
فأخجل الكفار خجلا ما بعده خجل ·

وازداد غيظ الحاكم القوى
وأمر بأن يقيد جيورج ويربط الى عجلة
وأنا أقول لكم الحقيقة عندما أذكر أنهم قطعوه عشر قطع
وأنا أعلم علم اليقين فأقول ان جيورج قام من الموت
نعم قام من الموت وألقى عظاته
مما أخجل الكفار خجلا ما بعده خجل ·

وأمر الحاكم بأن يقبض على جيورج مرة أخرى وان يعذب مر العـــذاب
وأمر بأن يسحقوه وبأن يحرقوا المسحوق
ويلقوه في بئر ، ولكنه كان ابنا بارا مباركا ·
ثم وضعوا على البئر الكثير من الأحجار الكبيرة
وأقاموا موكبا ، ونادوا ساخرين على جيورج أن يقوم
فصنع جيورج المعجزة الكبيرة كما صنع أمثالها من قبل
فقام من الموت وقفز خارجا من البئر
فأصاب الكفار خجل ما بعده خجل ·

فذهب الى الحجرة ، وقابل الملكة
وشرع يلقى عليها تعاليمه ، وهي تنصت اليه ،
أما اليساندريا ، فكانت على خلق عظيم
كانت تريد فعل الخير ، وتريد التبرع بأموالها
بل لقد تبرعت بممتلكاتها الثمينة كلها ، وسيكون لها في ذلك عون
حيث تشملها المنة من الأزل الى الأبد
وكان هذا شيئا مما دعا اليه القديس جيورج
ورفع جيورج يده فارتعد أبولينوس
وأصدر أمره الى كلب الجحيم ، فانحدر من فوره الى الهاوية ·

واذا كان الأدب الألمانى قد تغير وتطور من القرن التاسع حتى القرن الثانى عشر . واتخذ هذا التطور فى نهاية هذه الفترة هيئة التحول الكبير ، فان بعض أسباب ذلك تتصل بالتفاعل الثقافى بين العالم الاسلامى والعالم الغربى . كانت الدولة العربية الاسلامية قد تاخمت الدولة الرومانية الشرقية والغربية فى أكثر من موضع وامتدت فى مطلع القرن الثامن الى أسبانيا وجنوب فرنسا بعد ذلك . وعلى الرغم من العلاقات بين الجانبين كانت فى أحوال كثيرة تتدهور الى معارك وحروب ، منها مثلا حرب استعادة اسبانيا التى تولاها العالم المسيحى وقادها طوال قرون حتى أنهى الحكم الاسلامى العربى فى اسبانيا نهائيا فى عام ١٤٩٢ . ومنها الحروب الصليبية من عام ١٠٩٦ الى عام ١٢٩١ التى انتهت بعودة الصليبيين الى ديارهم ، الا أن المؤثرات الثقافية العربية الاسلامية أدت دورها فى الغرب . وقد شمل هذا الدور الفلسفة والعلوم والفنون كلها . ويمكننا أن نلاحظ آثار الثقافة العربية الاسلامية على الأدب الألمانى ، فى الفترة بين مطلع القرن التاسع ومنتصف القرن الثالث عشر . ويمكننا أن نتتبعها فى المضمون والشكل معا . فهناك دراسات تشير الى أن الأدب الألمانى تأثر الشعر العربى فى الأخذ القافية ، بعد أن كان يعتمد على التجنيس ، وهناك دراسات تؤكد أن شعر الحب نشأ فى ألمانيا وتتطور على هدى من شعر الحب عن العرب . وهناك دراسات تبين أن الشرق أصبح رمزا على الروعة والقوة والجمال ، وأن الأدباء والشعراء الألمان اغترفوا من كنوزه الشىء الكثير ، وبخاصة النوادر العجيبة والحكايات الفريدة التى ضمتها فيما بعد مجموعات مثل ألف ليلة وليلة ، وهناك دراسات تبين أن الشرق نقل الى الغرب مفاهيم التسامح والشهامة وأخلاق الفرسان التى بدأت قبل الاسلام ثم جعل الاسلام لها شأنا عظيما فيما تممه من مكرم الأخلاق .

ويبدو أن الروعة والغرابة هما السمتان البارزتان اللتان ارتبطتا بالشرق . فاذا أراد الشاعر أن يضفى على أشخاصه الروعة ألبسها ثيابا من الشرق ، أو أركبها خيولا من الشرق أو جعلها تسافر الى الشرق . واذا أراد أن يبهر القراء أو المستمعين حكى لهم عن غرائب الشرق وما يحدث فيه من خوارق وما يلقاه فيه الانسان من حيوانات غريبة وأشجار غير مألوفة .

وما اجتمعت للشعراء هذه الامكانات حتى تغير طابع الأعمال الأدبية، وأصبحت أكثر ثراء ، وتنوعا . ولم تعد قاصرة على التربية الدينية أو

الوعظ والتبشير ، حتى الأعمال التى كتبها الرهبان والقساوسة • دخلت العناصر الترفيهية الى جانب العناصر الوعظية ، واتجه الشعراء الى قصص تدور أحداثها حول شخصيات أخرى غير المسيح وتلاميذه والقديسين ومعجزاتهم • واحتفظ الشعراء فى اطار هذا التجديد بشىء ، قل أو كثر ، من الارتباط بالمضامين الوعظية •

وقد حفظ التراث المدون لنا من القرن الثانى عشر عددا من القصص الشعرية التى تجمع بين التسليه والتربية ، نذكر منها :

قصـــة الاسكندر
قصـــة الملك روتر
قصـــة رولاند
قصـــة الأمير ارنست
قصـــة القديس براندان
قصـــة القديس أوسفالد
قصـــة سالمان وموزولف

قصة الأسكندر

تحولت حياة الاسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) بعد غزواته التى شملت أجزاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك ، وانتصاراته الكثيرة الرائعة ، وأعماله المتلاحقة التى تمت فى وقت وجيز ، الى قصة أسطورية تنتسب صياغة منها الى الكاتب السكندرى المزعوم كاليستينيس. وقد انتقلت قصة كاليستينيس ، التى يحتمل أن تكون قد تكونت فى القرن الثالث ، الى أوروبا ، ونقلها الى اللاتينية يوليوس فاليريوس فى القرن الرابع الميلادى . وفى أواخر القرن الحادى عشر أو فى مطلع الثانى عشر عالج شاعر فرنسى هو ألبريش البيزنصونى المادة المتناقلة فى قصة شعرية لم يبق لنا منها الا نحو مائة بيت ، ثم أتى دور القسيس الألمانى « لامبريشت » فأنشأ قصة شعرية اعتمد فيها على القصة الفرنسية ، وعلى ما وجد فى زمانه من مصادر أخرى مثل « قصة الاسكندر الأكبر المقدونى » تأليف كوينتوس كورتسيوس روفوس . ويعتقد العلماء أن لامبريشت ألف قصته فى العقد الثالث من القرن الثانى عشر ، ثم تناولها شعراء آخرون بعده فأضافوا وعدلوا . فزادت القصة من ١٥٣٣ بيت الى ٧٣٠٢ بيت !

واذا كان الشاعر القسيس قد اختار رجلا من غير المؤمنين - الاسكندر - ليحكى قصة حياته ، فانه يحرص على التنبيه الى أن الغرور خطيئة ، وأن طالب الدنيا يظل يجمع ويجمع حتى يأتى الموت فيجد أن ما جمعه دون الهباء المنثور . يذكر الشاعر فى البداية أن الاسكندر كان ملكا عظيما ، ولكنه يستدرك فيقارنه بسليمان الذى كان ملكا ونبيا ، ويحكى عن شبابه ثم عن معاركه الحربية ، وزواجه بالملكة روكسانه ، ويصف رحلات الاسكندر الى الشرق الأقصى ، ويوم وصوله الى الملكة كانداسيس فى آخر الدنيا ، ويوم بلغ باب الفردوس فنصحه شيخ كبير واقف بالباب بأن يتواضع ، وأعطاه حجرا له سر حضه على أن يبحث عمن يكشفه له . فلما عاد الاسكندر الى بلاده وجد عالما يهوديا فهم الرمز الذى يتمثل فى الحجر : حذار من الطمع والطموح والشره والكبر فان نهايتك

الى الأرض تموت وتدفن فيها . فلما مات الاسكندر بعد سنوات مسموما لم ينل من الدنيا الا قبرا طوله سبعة أقدام .

أما مخطوط بازل أو الصياغة البازلية فنجد فيه أشياء طريفة منها مثلا أن الشاعر المجهول ينسب الاسكندر الأكبر الى مصر لا الى مقدونيا ، فهو ابن الملك المصرى نيكتانيبوس (لا الملك المقدونى فيليبوس) ، ومنها الرحلات الثلاث التى يقوم بها الاسكندر لكشف عجائب الكون : الرحلة الأولى فى داخل ناقوس غواص شفاف نزل به الى عجائب جوف البحر ـ والرحلة الثانية على كرسى يحمله طائران من طيور الرخ لمشاهدة عجائب السماوات ـ والرحلة الثالثة الى أشجار الشمس والقمر حيث سمع صوتا يقول له أن أقرب رجل من حرسه الخاص سيدس له السم ويقتله .

عظمة الاسكندر :

ما أكثر الملوك العظام .
ولكننا لا نجد كتابا يحدثنا
عن ملك كانت له معارك أكثر
ولا قوة أعظم
ملك فتح فى الأزمنة القديمة
بعد غزوات ومعارك
بلادا بهذا العدد
أو قهر ملوكا بهذه الكثرة
أو غلب من الأمراء
وغيرهم من الولاة
مثلما فعل الاسكندر الرائع .
الذى لا يضارعه أحد .

خرج الى الدنيا عند الاغريق
واصطفوه ملكا عليهم
فقد كان أعظم رجل
أجلسه الاغريق على عرش ملوكهم .
ولقد كان لهم من قبل ملوك أقوياء
أعزاء وعظماء

وكان سلطانهم عريضا
وجلالهم مشهودا
وحكمتهم كبيرة
ومهارتهم فريدة وعلومهم واسعة
وأموالهم كثيرة ووفيرة ،
ولكن أحدا منهم لم يكن يساويه
. . . . . .
اللهم الا اذا نقلنا الحديث الى مقام آخر .
فقد كان سليمان فريدا جديرا بأن يستثنى
وأن يبوأ مكانا له هو دون كل الملوك .
عندما أتت اليه ملكة الشرق (ملكة سبأ)
وبدأت ترى حق الرؤية
كل ما عنده من أعاجيب
واحدة واحدة
ولما رأت حكمته
وعظمته وقوته
وما تزدان به موائده
من لحوم وأسماك
ولما رأت معبده
قالت مقالة الحق :
لم يولد من بنى البشر
من يصل الى عظمة سليمان .
فلابد من أن نستثنى سليمان
لأن الاسكندر كان وثنيا .
. . . . . .
صدقونى عندما أقول لكم
انه (بعد مولده) نما فى ثلاثة أيام
أكثر من أى طفل آخر فى ثلاثة أشهر
ـ وكان اذا حدث له شيء
أثار غضبه

يبدو مثل الذئب
عندما يهجم على فريسته ٠
واعلموا ان ما أقوله هو الحق
لقد كان شعره أجعد أحمر
يشبه فلوس السمك
الذى نراه فى ماء البحر
وكان شعره كثا
كثيفا كلبد الأسد المفترس ٠

انشاء الاسكندرية :

وأســـر
منهم ألفـا
ساقهم جميعا الى مصر
حيث خلد اسمه
فبنى مدينة تحمل اسمه ٠
ومهما جال الانسان فى بلاد الدنيا جميعها
فانه لن يرى مدينة واحدة
تضارع تلك المدنية ٠
فلا كانت بابل فى سعتها
ولا بلغت طروادة أبعادها
كانت تلك المدينة التى أسماها الاسكندرية
أعظم من روما وأنطاكية

وصف معركة صور :

. . . . . .
لو اطلعت عليهم لرأيت العجائب
وكيف كان الاسكندر يصول ويجول ٠
كان درعه من سن الفيل
رائعا لا يدانيه درع آخر ٠
كذلك كانت خوذته رائعة
لا ينفذ منها سلاح ٠

وكان يتمنطق بسيف
قاطع بتــــار
وكان يمسك بيده رمحا
يصيب به اصابات أليمة .
واني لأروى لكم الرواية صادقا لا أكذب
فلما رأى الأمير
الذى تخضع لامرته صور
يقف أمامه على أسوار المدينة
رمى عليه رمحه
فأرداه قتيلا في المدينة
وقفز الملك قفزة واحدة
ومعه كثير من الأبطال الشباب
الى شرفات الحصن .
فقد كانوا يريدون الاستيلاء عليه
وقفز معه من رجاله أربعة آلاف
تحدوهم الشجاعة والبسالة
ولا أظنني أخطىء التقدير
اذا قلت ان بعضهم خر صريعا .
في هذه المعركة العنيفة .
وتناثرت جثث مائة من الأبطال
الذين قفزوا مع الملك .
وكذلك لحقت خسائر جسيمة
بالمحاربين الاغريق
عندما اقتحموا الحصن .

كان ميدان الوغى ممتدا الى بعيد
وكانت المعركة أشد المعارك شراسة
فيما أعلم عن المعارك والحروب .
واستبسل الرجال جميعا ،
ولو اطلعت عليهم لرأيت أبطالا
تنفذ الضربات من خوذاتهم ،

وشبابا من الفرسان
جرحوا جروحا فى أعناقهم تحت السرابيل
فلم ينج من الموت
من نزل ساحة النضال .

لقد انطلقت الرماح ونفذت من خلال التروس
وأصابت الرجال اصابات قاتلة .
وكان الاسكندر العجيب
لا يكف عن الضربات الموجعة ،
وكم قتل من الرجال .
وكان درعه صلدا
قد غمس فى دم التنين
فاكتسى بقرنية صلدة غطته كله .

ولقد غصت الأرض بالقتلى
فلم يكن انسان
يجد موطئا لقدم

كذلك اصطبغ البحر دونهم
على عمقه بالدم القانى .

ولقد ناضل أبطال صور
اذ ذاك
نضال الخنازير البرية ،
ولكن الموت لم يكن منه فكاك .

وهكذا كانت الخسائر جسيمة على الجانبين .
ولكم طارت السهام
كثيرة كثيفة
كالثلوج المنهمرة أو الأمطار !
وكم خر الأبطال صرعى !

ولقد حارب رجال الاسكندر
حربا تليق بالأبطال
ولكن رجال صور استطاعوا
أن يلوذوا بالحصن من جديد .

والحق أن الاسكندية ظلمهم
وفقد من محاربيه الأوفياء كثيرين
واستبد به غضب شديد
. . . . . .
وظل رجال الاسكندر يلقون على المدينة
- تارة معجلين وتارة مؤجلين -
النار الاغريقية والخشب المشتعل
وكان الاسكندر يتقن هذه الصنعة
ويعرف كيف يصنع النار الاغريقية
ولا يطلع أحدا على سرها
وكيف كان يصنعها بسحره
فتشتعل حتى في الماء .
. . . . . .
واقتحم الاسكندر الأبواب
غضوبا هصورا ....
وقرر الانتقام
فأمر بهدم الأبراج
التي لم تكن النار قد أتت عليها .
وأمر بالقبض على ثلاثة آلاف
وأمر بشمل عيونهم وتعليقهم على المشانق
انتقاما لأمرائه الثلاثة
الذين كان قد بعث بهم الى المدينة .

من عجائب الشرق :

كذلك رأينا هناك ،
طيورا في الحقيقة صغيرة
ورقيقة الحس
ولكنها لا تهاب الموت
اذا أراده أحد بسوء
تنزلت عليه نيران من السماء

وأصابته بالعذاب
وجعلت حياته جحيما ·

ورأيت كذلك معجزة أخرى :
شجرة بدون ورق
لا خضرة عليها ولا ثمار
وقد حط عليها طائر جميل
رأســه تنير
ـ صدقونى ـ
كما تنير الشمس ·
ذلك هو أروع الطيور
طائر الفونيكس
الطائر الفريد
فى كل البلاد
وفى أنحاء الدنيا جميعها
وهو طائر صغير ·

فلما سرنا عند شاطئ البحر
خرجت من صفوف الجيش
ومعى ثلاثة آلاف من الرجال ·
وسرنا نبحث عن العجائب
ونطلب الغرائب
فرأينا عن بعد
غابة رائعة
وكانت عجيبة العجائب
تلك التى شهدناها وسمعناها
فما كدنا نقترب من الغابة
حتى سمعنا بداخلها
أصواتا جميلة كثيرة
ونغمات كنغمات آلتى الهارب والكنارة
وغناء بأعذب صوت
يمكن أن يخطر ببال انسان

ولو أن انسانا جمع كل ما في الموسيقى من نغم عذب
لما قارب هذه الروعة ·

وما أكثر الظلال الوارفة
التي ألقتها الأشجار الباسقة :

وما أكثر الزهور والحشائش
وشجيرات العطور اليانعة !

لا أظن أن غابة بهذا الجمال الرائع
يمكن أن يكون لها مثيل ·

كانت غابة مترامية الأطراف
طويلة ، عريضة ،
كما قلت ووصفت
في مرج جميل ،

ورأينا هناك
جداول كثيرة بديعة
تنساب من قلب الغابة
صافية ، رقراقة ، باردة ···

كانت الأشجار عالية
وكانت الأغصان كثيرة متشابكة ···
لا تستطيع الشمس
أن تنفذ من خلالها الى الأرض ·

فتركت أنا ورجالي
خيولنا وترجلنا
وتوغلنا في الغابة
وراء الغناء البديع
وطال علينا الوقت القصير
حتى بلغنا موضعا
رأينا أنه المكان
الذي تحققت فيه المعجزة

وجدنا عددا كبيرا من الحسناوات
يلعبن اذ ذاك
فوق النجيل الأخضر

مائة الف من الحسناوات او يزيد
كن يلعبن ويرقصن
ويغنين غناء جميلا ،
الكبار منهن والصغار .
فلما سمعنا الشدو الحلو
في ربوع الغابة
نسينا جميعا ، أنا وأبطالى ،
الحـزن والتعب
وكل ما كنا قد عانيناه
وما جرى علينا من أحداث ثقال ....
واذا أردتم أن تعرفوا
أمر الحسناوات
من أين أتين
والى أين ينتهين
فسأحكى لكم ذلك
فهو من الأمور العجيبة
المثيـرة الغريبة .
عندما ينتهى الشتاء
ويبدأ الربيع (الصيف)
وتكتسى الدنيا بالخضرة
وتبدأ الزهور النفيسة في التفتح
تكتمل هيئتهن الجميلة
ويشع سناهن البراق
وينبعث من حمرتهن وبياضهن
نور غامر الى بعيد
تلك زهور جميلة
لا مثيل لها ولا نظير
لها هيئة خاصة
فهى مدورة كالكرة
وتكاد تكون مقفولة من كل جانب

وهي كبيرة ذات حجم عجيب
وما أن تتفتح
حتى تخرج منها
البنات كاملات
وأنا أحكي لكم عما شاهدت
فقد كن يرحن ويجئن ويعشن
ويفهمن بما أوتين من عقل البشر
وكن يتكلمن ويتدللن
كبنات في الثانية عشرة من عمرهن .
والحق أن خلقتهن كانت جميلة
وقوامهن ممشوق
لم أر في حياتي وجه امرأة
أجمل من وجوههن
ومن عيونهن البديعة
أما أياديهن وأذرعهن
وأقدامهن وسيقانهن
فكانت بيضاء بلون فراء القاقوم
وكن جميعا مهذبات
آخذات بحسن السلوك
والأدب الرفيع
وكن يضحكن مرحات
ويغنين مبتهجات
لم يسمع انسان من قبل
صوتا أعذب من صوتهن .
وصدقوني عندما أقول
انهن كن غريبات الأطوار
كن من كائنات الظلال
لا يترعرعن الا في الظل
فاذا وقع عليهن ضوء الشمس
ذبلن وقضين توا ....

اما ثيابهن
فكانت نامية على أبدانهن
لصيقة بجلودهن وشعورهن ...
وأرسلت توا الى جنود جيشى
ليأتوا الى
وليسمعوا هم أيضا
النغم الجميل البديع
فأقبلوا مسرعين
وضربوا خيامهم
فى الغابة لا فى الميدان .
صاخبين مبتهجين
وسعدنا جميعا
بالفتيات العجيبات
وكنا جميعا ، أنا ورجالى ،
نود البقاء هنا دائما
وقد تزوجنا الحسناوات .
ونلنا من السعادة
أكثر مما كنا قد أوتينا
فى عمرنا منذ خرجنا الى الدنيا .
فيا، أسفى على ضياعى السعادة !
وما أشد آلامى !
لقد استمرت هذه السعادة
التى رأيتها بعينى
صـــدقونى
ثلاثة أشهر واثنى عشر يوما
أمضيتها أنا وأبطالى
فى الدنيــا الخضراء
عند المروج الجميلة
مع الحسناوات الحبيبات
نلنــا النعيم
وعشنا فى بهجة وسرور .

ثم حلت بنا النكبة
التى لا أعرف كيف أشكو منها وانتحب ٠
لقد مضى الوقت بنا
وانتهت البهجــة
عندما ذبلت الزهور
وماتت الحسناوات ٠
لقد ألقت الأشجار أوراقها
وكفت الغدران عن الجريان
وسكتت الطيور عن الشدو والغناء ٠
فتملك الحزن قلبى
واشتدت آلامى وزادت
وقد رأيت الفتيات الجميلات
يذبلن وينتهين الى الفناء ٠
لكم تألمت وأنا أراهن يهلكن
وأرى الزهور تذبل
فانصرفت من هناك حزينا
مع رجالى جميعا ٠

قصة الأمير ارنست

نشأت هذه القصة الشعبية التي لانعرف كاتبها في الربع الاخير من القرن الثاني عشر . وتدور احداث القصة المنوعة غاية التنوع في اطار العلاقة بين القيصر أوتو والامير ارنست ، تبدأ جيدة ، ثم يتدخل الوشاة فتفسد ، فيهيم الامير على وجهه ، ويرحل الى الشرق . ثم يكتشف القيصر حقيقة الأمر . وتعود المياه الى مجاريها ، ويعود الأمير ارنست بهدية ثمينة الى القيصر .

وقد بدأت الاحداث عندما فكر القيصر الالماني أوتو في الزواج من الاميرة (آدلهايد) ، أرملة أمير (بافاريا) ووالدة الامير ارنست ، فأرسلت الى ابنها ــ وكان اذ ذاك على سفر ــ تسأله المشورة ، فوافق ورحب وبارك ، وتم الزواج السعيد . وعرف القيصر أوتو للأمير ارنست موقفه ، وأكبر فضائله وقدراته ، فأغدق عليه من نعمه ما أغدق ، وجعله وليا للعهد .

واشتعلت نار الحقد في قلوب الحاسدين ، وذهب كبيرهم ، وهو الجراف هاينريش الى القيصر ، وأغار صدره على ابن زوجته ، وادعى انه يرتب لقتله . فلما علم الامير ارنست بالوشاية الدنيئة ، أقسم على أن يؤدب صاحبها ، وذهب الى قصر القيصر ووجد هاينريش هناك . فقتله . ولكن هذه القتلة لم تكن لتقضي على المكر السيء وأهله ، بل اتت كالزيت يساقط في النار فتزداد اشتعالا . ولقد غضب القيصر على ارنست ، وبعث بالقوات تلو القوات لتأديبه ، ودارت رحى المعارك فباد ماباد ، وهلك من هلك . واخيرا قرر الامير ارنست أن يترك الجمل بما حمل ويذهب للحج الى القبر المقدس في فلسطين .

وسار في حاشية كبيرة ، فاجتاز المجر وبلاد البلغار حتى وصل الى القسطنطينية ، ومنها ركب هو ورجاله البحر وفيهم صديقه فيتسل ، الصديق الوفي . واستمرت الرحلة البحرية شهرين ، شهد فيهما ارنست مثلما شاهد السندباد البحري في بعض أسفاره .. ونزل ارنست ورجاله الى البر في جزيرة آجريبيا العجيبة ، فوجدوا

هناك قصرا بديعا خاليا من الناس ، مدت فيه الموائد عامرة بالنعم والملذات ، فأكلوا وشربوا مما لذ وطاب . وبينما هم على هذه الحال أتى أصحاب القصر ، وهم أناس لهم مناقير كمناقير الطير ، وبينهم اميرة جميلة من الهند ، كان أمير أصحاب المناقير يتودد اليها على طريقته السخيفة ، فيؤذيها ، ويؤلمها . ولقد ثارت ثائرة الامير ارنست عندما رأى هذا الظلم البين وتحرك قلبه بالرحمة ، ودخل معركة مع أصحاب المناقير ، فقد فيها نصف رجاله . ولم يفلح فى انقاذ الأميرة لأن وخزات المناقير كانت قد اهلكتها .

فلما ترك الامير ارنست الجزيرة وركب البحر مع من بقى من رجاله ، حمله الموج الى جبل المغناطيس الذى جذب اليه السفينة ، فارتطمت بحطام السفن الهالكة ، وتشتت الرجال ، وغرق الكثيرون ، أما ارنست فقد بلغ البر ومعه سبعة من رجاله ، فيهم الصديق فيتسل . وجد ارنست ورفاقه أنفسهم فى جزيرة كأنها السجن ، لاتتصل بأرض اخرى ، ولاتتيح لمن فيها سفرا الى قريب او بعيد . وسرعان ماتفتق ذهن فيتسل ، صديق ارنست ، عن حيلة بارعة للنجاة ، فاتخذ لنفسه، وكذلك فعل أصحابه ، كسوة من جلود كلب البحر ، وتمدد الرجل حيث تاتى طيور الرخ بحثا عن طعام لصغارها ، وبالفعل حملتهم الطيور العملاقة الى أرض غير الارض . ومازالوا يسيرون فى الفيافى والقفار ، ويركبون الجبال والتلال ويهبطون من الهضاب الى الوديان حتى لاح لهم مسلك مائى ، فصنعوا طوفا وركبوا الماء . فوصلوا الى جبل الومضة المقدسة – الكارفونكل – وعثر أرنست هناك على جوهرة « يتيمة » حملها معه لتكون هديته الى القيصر الذى لابد سيفرح بها ، ويحلى بها تاجه .

ولكن سلسلة المغامرات لم تنته بعد ، فقد نزل ارنست بين شعب من العور ، انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين ملكه الطيب . وكان شعب العور فى حرب مع امم اخرى ، مع أمة مفرطحى الاقدام ، وامة العمالقة . وذات يوم ركب ارنست سفينة من سفن التجار المسلمين المتجهين الى القدس ، سعيا للوصول الى هدفه الذى خرج من اجله . ولكنه نزل فى الطريق فى بلاد ايبيان وكان يقوم عليها ملك مسيحى ، ووجد الحرب دائرة بين هذا الملك وملك بابيلون (= مصر) المسلم ، فساعد ارنست ايبيان على بابيلون . وأخيرا وصل الى بيت القدس ، وكانت الحروب الصليبية مشتعلة الأوار ، فدخل الى جانب الصليبيين، وبرز فى المعارك حتى طوقت شهرته الآفاق ، وسمع بها القاصى والدانى.

وهكذا علم القيصر أوتو من أمر أرنست ما كان يجب أن يعلمه ، وتأكد من براءته ؛ وكانت الملكة آدلهايد لاتفتأ تدافع عن ابنها المظلوم ؛ حتى حصحص الحق . وأرسل القيصر الى ارنست يدعوه للعودة . فعاد وسمع من القيصر عبارات الرضا والتقدير ، فقدم اليه الدرة اليتيمة .

فى هذه القصة — التى تزيد عدة أبياتها على ستة آلاف بيت — بقية من التأملات الدينية ، وعناصر التربية التى كانت فيما مضى تتسم بالأهمية الاولى . كذلك فيها بقية من احداث تاريخية حقيقية ، وبقية من الأساطير الجرمانية القديمة ، ولكن عناصر المغامرة والبحث عن العجائب والاندفاع الى البلاد المجهولة تحتل مكان الصدارة . ولا يشك أحد من الباحثين الثقاة فى ان التراث القصصى الشرقى وخاصة قصص الف ليلة وليلة قد عرف سبيله الى هذه القصة وغيرها . وكان كتاب ذلك الزمان قد عرفوا كيف يفيدون من كتب الرحالة الذين ذهبوا الى الشرق او الذين ادعوا أنهم ذهبوا الى الشرق ، ونشروا بين الناس احاديث صدق وخرافة عن مشاهداتهم وملاحظاتهم .

مطلع القصة :

هيا اسمعوا لى وانصتوا :
فسأحكى لكم عجائب كثيرة
عن بطل كريم نبيل .
فتابعوا القصة بانتباه واهتمام .
ففى الاستماع لها فائدة جمة
لأنها تشحذ الفكر والوجدان
كلما دار الحديث عن الشجاعة والاستبسال .
ولكم يعانى الناس من الحزن والغم
اولئك الذين يملكون الارض فى أوطانهم
ولايجرؤون بحال من الأحوال
على شىء مما يحكى عن معارك الأبطال .
انهم يتقاعسون عن البطولة
لانهم لم يمارسوا النزال
بل يتحاشونه
ويبعدون عنه

لأنهم لايصلحون له
وتراهم يكذبون حكايات البطولة
ويجادلون فيها أشد الجدل
ويقللون من شأنها
فانها كلها اكاذيب مختلفة .
أولئك ناس تعوزهم الفضائل .
أما الرجال الأفذاذ
فلا يقيمون وزنا لهذا الكلام
ويعتبرونه كالهواء
ويذهبون الى البلاد البعيدة
ويجابهون الأخطار الجسيمة
تدفعهم الجرأة والجسارة
ويتحملون الفرح والحزن
بين أقوام يجهلونها .
انهم لايشككون فيما يقال
ويحكى عن الأهوال
وأنا أقول هذا كله
لأنهم جربوها بأنفسهم .

لكي تتبينوا على نحو افضل
معنى القصة التي سأرويها
فلست أنوى أن أخفى عليكم
الأهوال والصعاب
التي كابدها الامير ارنست
منذ خرج طريدا من بافاريا .
والكتب تسجل فى صفحاتها
انه كان يمسك بمقاليد الامور فى امارة بافاريا
وأنه كان ينصر الضعاف والاقوياء
بهمة وعزم
وأن أعماله كلها
كانت تلقى المدح والتقدير .
ولقد تولى الامير الشاب بعزم الرجال

الحكم الذي ورثه عن أبيه
الى ان زحزحه عنه
القيصر بسلطانه وهيلمانه
واضطر عدد كبير من الفرسان
الى التخلى عنه مكرهين .
وهكذا فقد ترك الحكم كريما
وخرج معه عدد من الأبطال الأخيار
وقفوا بجانبه بالروح والمال
جسورين حتى الموت .
ولقد تعرض للأهوال الكثيرة
ولكنه تغلب عليها برجولة
لأنه كان بطلا شجاعا .

وأريد كذلك أن أحكى لكم
ما جرى على الرجل النبيل
وما جعل القيصر يسىء اليه هذه الاساءة .
تقول القصة انه كان طفلا صغيرا
عندما مات أبوه
ولقد ترك له أبوه الحكم ميراثا
وترك له كثيرا من الابطال الصناديد فى خدمته .
فتولوا تربيته ، وقاموا بذلك خير قيام ،
ومنعوا عنه السوء والشر .
أما أمه فكان اسمها آدلهايد ،
كانت امرأة كريمة الحسب والنسب
أخذت نفسها منذ صباها بالفضيلة
فعاشت متمتعة بالتشريف والتكريم .
وامرت أن يتعلم ابنها
اللغة الايطالية واللغة اللاتينية معا .
كذلك بعثت بالصبى صغيرا
ليتعلم فى بلاد الاغريق .
وتعرف الى الرجال
الذين يتقنون فروع العلم والحكمة .

واجتهد الصبى ما وسعه الاجتهاد
فى ممارسة ألوان النضال
فزاده ذلك تشريفا وتكريما .

وأمضى الصبى الطلعة
سنوات صباه
فى التعرف الى البلاد الأجنبية ،
ولهذا عرفه الكثيرون
فى الممالك المختلفة وقدروه
ولما كان قد سلك مسلكا حميدا
عرفه عنه الناس
فكثيرا ما ذكروه بالخير
ومدحوه وقرظوه .
كان متواضعا
مخلصا وكريما
ولهذا كان حملة الدروع
يلتفون حوله كثيرين
اذا احتاج اليهم فى نزال او نضال .

حجرة الطعام فى القصر المنيف بجزيرة جريبيا .

وكانت هناك موائد رائعة
على هيئة دائرة
عليها كلها مفارش حريرية
موشاة حروفها بالذهب
مزينة بأفاريز بديعة .
كذلك كانت الكراسى رائعة .
كانت الموائد كلها
قد جهزت أروع تجهيز
على نحو ما سأحكى لكم ..
لقد رأينا على كل مائدة
اللحم والخبز والسمك مختلفة الاشكال
والتوت والخمر والعسل وانواعا من النبيذ

هى احسن الانواع
ولحوم حيوان الوحش والدواجن
وليس لنا ان نسأل
من اين اتوا بكل هذه الطرف .
كانت أقداح الشراب وأوانى الطعام من الذهب الخالص
والمواعين من الفضة المشغولة الجميلة .
كانت الوليمة تضم كل شيء
يحتاج اليه البدن فى الحياة .
وهنا قال ارنست البطل المقدام
لرجاله الفرسان :
« تناولوا طعامكم ،
وتصرفوا تصرف الحكماء ،
وعليكم أن تشكروا الله
وتحمدوه مخلصين
على النعم العظيمة
التى أنعم بها اليوم علينا » .
ثم قال البطل المغوار :
« ان لنا أن نتناول دون خوف من خطيئة
مايتاح لنا من طعام
أو ما نستطيع الحصول عليه ،
واتركوا مايبقى على حاله .
وربما اراد الله أن يبتلينا
فلا تطمعوا فى شيء من الذهب
ولا تمدوا عيونكم الى الترف والزخرف .
ولا تتمنوا المفارش الثمينة
بل دعوها وشأنها .
واشكروا الله ربنا
الذى انقذنا من كثير من الأهوال
والذى افاء علينا من النعم والطيبات ...
وتلك معجزة عظيمة
اختارنا الله لها . »

الحمام كمظهر من مظاهر الحضارة في العالم العربي الاسلامي :

فلما فرغ الابطال العظام
من مشاهدة الأبنية الرائعة
في الحجرة الفاخرة
واتجهوا الى الخارج
رأوا بجوارهم رحبة واسعة
رائعة الجمال .
تقوم على جوانبها وفي داخلها
اشجار الأرز الخضراء الكثيرة
فاقتربوا منها
فرأوا نبعين
ينسابان من الرحبة
أحدهما ماؤه بارد ، والآخر ماؤه ساخن ،
وقد استخدمت فيهما الحيل البديعة
والأفانين الطريفة
فكان الماء ينساب جميلا
ويحدث خريرا بهيجا
وقد أقيم على مقربة منهما حمام جميل
كسيت جدرانه كلها
بالرخام الأخضر
وشيدت فوقه قبة وسقف
وزين بالعقود والبواكي .
فهل يمكن أن يكون هناك حمام اجمل منه ؟
وكان فيه حوضان من الذهب الأحمر
يسقط عليهما النور البهيج
ويحمل الماء اليهما
ماسورتان فضيتان
صنعتا بدقة وجمال .
فاذا أراد الانسان
ماءا باردا أو دافئا
حملته اليه الماسورتان بالضغط

وفيرا الى الحوضين
وعلمنا أن هناك ماسورة من الحديد
تصرف الماء من الناحية الأخرى
وتحمله الى مجارى الصرف المشيدة
بالعلم والفن خلال المدينة كلها
داخل بطون الشوارع
الصغيرة والكبيرة .... »

أصحاب المناقير :

وبعد أن انتظر الابطال الشجعان
هناك بعض الوقت في ارجاء المكان
وشاهدوا ما شاهدوا من غرائب
لاح لهم جمع غفير عجيب
يأتى من ناحية بوابة المدينة
فيه الرجال وفيه النساء
كانت أجسامهم جميعا
سواء منهم الشباب والشيوخ
جميلة ممشوقة
كذلك كانت أياديهم واقدامهم
وأذرعهم وسيقانهم
جميلة الخلقة حسنة التكوين
الا رقابهم ورؤسهم
فكانت على هيئة طيور الكراكى .
هكذا رأوهم يسيرون على الأقدام
او يركبون المطايا
وقد ائتلف منهم جيش كبير
يتقدم نحو المدينة
ولم يكن لهم من سلاح
سوى القوس والترس
والكنانة البديعة الدقيقة
وفيها السهام الخطيرة الفتاكة

يحملها كل واحد منهم .
اما ثيابهم فكانت من الحرير الثمين
والمخمل والقشيب
يحلونها حسبما يشتهون
بالذهب وخيوط الحرير .
ولم تكن أجسامهم مصابة
بعلة أو نقيصة ،
بل كانت وافرة النماء والاكتمال
رجالا ونساء
الا رقابهم فكانت طويلة ،
وكانوا جميعا اقوياء أشداء .

وكان ملكهم يلبس افخر الثياب التى تدل على مكانته :
الا أن رأسه ورقبته ،
وأنا أحدثكم حديث الصدق ،
فكانا على هيئة البجعة
-- كان هو ملك جريبيا ..
وكان اثنان يسيران خلفه
وكانا هما أيضا يلبسان الملابس العظيمة
التى لا يتصور أحد اعظم منها .
كانوا جميعا من النبلاء الأشراف
اختارهم الملك
ليرافقوا على خير وجه
سيدة الحسن والجمال
التى لم يخلق مثلها فى البلاد .
ولقد كانت بشرتها بيضاء مثل الثلج
حسناء لا يطاولها انسان
طويلة الشعر حتى ان شعرها
ليكاد يصل الى الأرض
وكانت الحسناء مكسوة بالذهب الخالص
يغطى قوامها الغض كله .

ولم تكن فى الدنيا فتاة
تلبس مثل ثيابها البديعة ·
ورأوها تسير حزينة
وتبكى بكاء مريرا يفوق الحدود
كان وجهها وجه انسان
ككل الناس ..
وقد بسطت فوقها مظلة من الحرير
تمنع عنها الحر
وكانت الحسناء تمشى تحتها ·
وكان يحمل المظلة
اربعة من الرجال
بأعمدة أربعة بديعة الصنع
من الذهب الأحمر الخالص ،
هذه الحسناء الكريمة
ولدت فى بلاد الهند
واختطفها وأتى بها الى هنا
الملك الذى تحدثنا من قبل عنه ،
كانت احزانها تحز فى قلبها
وتزيد من هول بليتها
آلامها لوفاة ابيها
وموت امها ايضا .
ولن تلبث أن تموت هى الاخرى كمدا ·

جبل المغناطيس :

الا ان الأمير ورجاله
الحجاج الكرام
لم يفلتوا من الموت الا ليسيروا اليه من جديد .
فقد كتب عليهم
ان يروا الأهوال على أمواج البحر .
فتطهروا من ذنوبهم وخطاياهم
كان الأهوال غسلتها غسلا
كما سأحكى لكم :.

وتقول القصة انهم فى اليوم الثانى عشر
رأوا جبلا هائلا
اتجهت السفينة الى حافته
كان اسمه جبل المغناطيس

وصدقونى
انهم كانوا تواقين اليه
ورأوا الصوارى الكثيرة
كأنها غابة كثيفة

ففرح الأبطال الشجعان
واشتد عزمهم
وظنوا أنهم قد تغلبوا
على ما شهدوا من تعب ومعاناة

وأنهم سيجدون هنا
مدائن وأناسا
كما رأوا فى بلاد جريبيا ..
ولكن الجبل كان بعيدا لا يزال

فلم يروا سوى الصوارى والأبراج
كما قلت من قبل ...

وصعد أحد البحارة فوق الصارى
عاليا فوق القمة

عندما اشتد تيار البحر
ودفعهم دفعة قوية .

وفزع فزعا شديدا
عندما رأى الجبل

وامتلأ قلبه بالغم والهم .
ونادى على الرجال
تحت فى السفينة :
أيها الأبطال العظام

استعدوا وخذوا اهبتهم
للحياة الأبدية ..
لقد هلكنا وانتهينا

لأننا سنبقى هنا دائما .
فالجبل الذى نراه هنا
يقع فى بحر الكبد (البحر المتجمد)
وسنموت جميعا
الا اذا أنقذنا الله
سنندفع الى الصخرة
التى حدثتكم عنها من قبل
فاتجهوا الى الله
بقلوب خالصة نادمين
وجددوا قلوبكم وضمائركم
وأصلحوا نفوسكم تجاهه .
وسأحكى لكم ايها الابطال
عن قوة صخر الجبل
وخاصيته الفريدة
التى اختصته بها الطبيعة :
اذا اتجهت نحوه سفينة مهما كانت
فى دائرة قطرها ثلاثون ميلا
جذبها اليه
على التـــو
هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها
واذا كانت السفينة مثبتة بمسامير حديدية
فلاينبغى الابحار بها الى هناك
لأنها هالكة لا محالة
والسفن التى ترونها واقفة هناك
عند الجبل المظلم
على حافة الصخر
واقفة فى الموضع الذى سنموت فيه .....
فلما فرغ الرجال المفتربون
من صلواتهم وابتهالاتهم
ونظموا امورهم كلها
رفعوا بالشكوى الى الله اصواتهم
وتوسلوا الى الخالق

أن يتولاهم برحمته .
وكان الابطال فى هذه الأثناء
قد اقتربوا من الصخرة
فرأوا بوضوح
السفن بصواريها العالية
وجذبت الصخرة الأبطال اليها
بسرعة كبيرة
واندفعت السفينة بشدة عظيمة
وتباعدت عنها السفن الاخرى
وتعاظم الشد والجذب
فتدافعت السفن بعضها نحو البعض
وتصادمت وارتطمت الصوارى
التى فقدت توازنها وترجحت
وكانت صدماتها كثيرة وعنيفة
فتحطمت تحت وطأتها السفن .
هكذا كان استقبال الضيوف
جاءوا ، فهلكوا ، ولن يعودوا ابدا ...
اما ان ابطالنا لم تهلك سفينتهم
لمعجزة كبيرة ،
اذ أن السفن جميعها
غرقت الواحدة بعد الأخرى فى البحر
ولقد لاقى الأمير ورجاله
الأهوال حقيقة
عندما رأوا الموت الفظيع
قريبا منهم الى هذا الحد .
الا أن الابطال الشجعان
وصلوا سالمين الى الصخرة
بعون من الله مبين .

أصحاب الأقدام المفرطحة :

ولنترك الآن ما مضى من حديث
ولنستأنف القصة الأولى .

كان للملك اريماسبي
جيران على هيئة عجيبة
كانوا يسمون أصحاب الاقدام المفرطحة
وكانوا يحدثون به ضررا بليغا
ويدفعونه الى معارك صعبة كثيرة .
كانت أقدامهم مفرطحة
مثل أقدام البجع
وكانوا اهل قوة وتفوق
في الغابات والمستنقعات
لأنهم لم يكونوا بحاجة الى أحذية ،
وكانوا اذا عصفت العاصفة
يتمددون على الارض
ويرفعون قدما الى أعلا
على نحو عجيب غريب
فاذا طال هطول المطر
رفعوا القدم الأخرى
بدلا من القدم التى تعبت
وهكذا كانوا دائما تحت مظلة واقية
من القدم المفرطح الكبير
لايمسهم الجو العاصف بسوء .

أصحاب الآذان الضخمة :

وتحكى القصة كذلك
ان الأمير ارنست الشجاع
سمع عن أمة غريبة عجيبة
في المنطقة المجاورة
في هضبة على البحر
هؤلاء الناس مأخوذون بالكبر
مفتونون بما يظنون انه الحكمة
وكان في مقدورهم تجريد جيش كبير
كلما احتاجوا

وكانت لهم هيئة غريبة عجيبة
حقيقة انهم كانوا أسوياء الخلقة
لايعانون مرضا أو علة
ولكن آذانهم كانوا طويلة
تتدلى الى أقدامهم
وتحيط من كل جانب بأجسامهم
ولم تكن بهم حاجة الى ملابس
لأن آذانهم كانت تكفيهم . »

حرب صليبية ثم مصالحة ثم صداقة :

وأقبل المسلمون بجيشهم الكبير
ولكنهم خسروا كثيرا
في المعركة فى أثناء النهار
لقد دقت أقدام المحاربين وحوافر المطايا الأرض
فاتسعت الطرق التي كانت من قبل ضيقة
وحدثت اشياء غريبة عجيبة
يوم النزال
وأقبل الأمير مبكرا
ومعه رجال الملك
وحمل العملاق بقوته العظيمة الراية
وسار بها نحو جيش المسلمين
وقام الأمير وصحبه
بصولات وجولات فرسانية ممتازة
وكان رجاله يتبعونه دائما
ويضربون
وكم تكسرت رماح !
وكم دقت اعناق !
ولو اردنا أن نفصل ونسهب
لأرهقنا انفسنا أيما ارهاق .....
ولقد انتصر المسيحيون

فى كل موقع حاربوا فيه
وتشتت جيش المسلمين
عندما انتصر المسيحيون
فلما جمعوا شملهم
فرح الملك اشد الفرح
وعاد برجاله
الى عاصمته
وامر الأمير بمعالجة ملك المسلمين
وتضميد جراحه خير تضميد
وطلب منه أن يجمع أمراءه
ويعاونوا ملك المسيحيين
عن حب واخلاص
ويعقدوا معه معاهدة
تخفف من خسائره ...
واقسموا الأيمان الصادقة
وتعاهدوا على الاخلاص وحفظ العهود
واطلق الجانبان الاسرى
الذين كانوا فى قبضتهما
وأعلنوا انهم يريدون أن ينسوا الحرب
والا يفكروا فيها مرة أخرى أبدا .
وشرع الأمير يحدث الملك عن رغبته
فى أن يسافر للحج الى أورشليم
وشكا اليه الصعاب التى تكتنف الرحلة
وكانت شكواه شديدة ملحة
واعتذر ملك العرب
لأنه لم يكن يستطيع البقاء
ولكنه أوصى به ملك بابليون (مصر)
ليعينه ويساعده
ويصحبه الى أورشليم
فى رفقة أمينة وثيقة ...

ولم ينتظر ملك بابيلون طويلا
بل ذهب ممتطيا جواده الى الملك المسيحى
وودعه وودع رجاله .
كذلك انصرف الأمير ارنست عن البلاط
معززا مكرما يحوطه التشريف .
ومنحه الملك الكريم
مطيتين محملتين
بالذهب الخالص
وجملا عظيما
وهكذا سافر الرجل الغريب
مع رفاقه جميعا
بصحبة ملك بابيلون
الى الاسكندرية .

أنشودة رولاند

اتخذ النقل عن الآداب الأجنبيـــة ، وخاصة الادب الفرنسى ، أهمية متعاظمة ؛ فنقل القس لامبرشت قصة الاسكندر ، ونقل القس كونراد حـــول عام ١١٧٠ قصة او أنشودة (رولاند) عن أصـــل فرنسى يرجع الى مطلع القرن الثانى عشر ، وزاد عليه ووسعه وعدله ووصل به الى ما يزيد على تسعة آلاف بيت من الشعر . وقد أدخل القس كونراد — الذى لا نعلم عنه شيئا الا انه ربمـــا كان من اهـــل مدينـــة ريجنسبورج جنوبى ألمانيا — الكثير من الأفكار المسيحية اللاهوتية فى معالجة الأحداث وتصويرها ، واضاف اليها عناصر منوعة من التراث القصصى المدون فى العهد القديم . ولكنه وجد الهيكل العام مكتملا فى الأصـــل الفرنسى على اســاس من تحريف التـــاريخ فتركه على حاله ، ورضى به وأرباه .

وتتلخص الوقائع التاريخية التى نقرأ عنها فى المدونات التاريخية المعاصرة فى أن كارل الأكبر — شارلمان — ملك الفرنجة ، كان يحتفـــل بعيد الربيع فى عام ٧٧٧ ميلادية فى مدينة بادربورن ، فحضرت اليـــه ســـــفارة عربيـــة تتألف من بعض الأمراء العرب الاندلسيين ، تطلب مساعدته فى حربهم ضد الأمير عبد الرحمن ، فوجد شارلمان فى هـــذا العرض خيرا له ونفعا ، فوافق . وتقدم بقواته فى اسبانيا ، بعـــد أن قسمها قسمين ، قاد بنفسه قسما منها ، وسلكت بعض القوات طريقا عبر الجزء الشرقى من جبال البرانس ، وســـلكت القـــوات الأخرى طريقا عبر الجزء الباســـكى من جبـــال البرانس ، وتمكنت القـــوات الفرنجيـــة من غـــزو مدينـــة جيرونا (جيرمـــــونه) ومدينـــة بامبيلونا (باميلونة) ثم التحم جناحا الجيش عنـــد ساجوسا (سرقسطة) ولم يستطيعا دخولها . وبينما الأمور تسير فى الميدان على هذه الحال، تلقى شارلمان اخبارا عن تمرد السكسونيين ، فقرر سحب قواته من اسبانيا والعودة الى مملكته لاخضـــاع المتمردين . وبالفعـــل تجمعت القوات الفرنجية ، وعادت ادراجها مجتازة منطقة جبال البرانس واذا بجماعة من الباسك تهجم على مؤخرة الجيش فى منطقة كثيرة الغابات،

وتفتك بعدد كبير من المحاربين فى ١٥ أغسطس من عام ٧٧٨ ، لا نعرف هل كان بينهم أبطال القصة أمثال رولاند وأوليفير .

ومن هنا يتضح أن العرب المسلمين لم يكن لهم شأن فى الكارثة التى حلت بمؤخرة جيش شارلمان ، بل على العكس كان بعض الأمراء العرب فى الاندلس يدخلون فى حلف مع شارلمان ، ويناصروه . ثم تحولت الحقيقة الى خرافة ، وصنع الشاعر الفرنسى أحداثا اخرى . وجعل شارلمان داعية من دعاة المسيحية ، وفى نفس الوقت ملكا عظيم الثراء ، له بلاطه الذى يحاكى بلاط الملك سليمان ، وله ندمانه وغانياته وله نصيب وافر فى التمتع بالفنون والتسلية والترفيه ، فالعازفون يعزفون الألحان الجميلة ، والمغنيات يغنين الأغنيات الحلوة ، والحيوانات الغريبة المدربة تدخل البهجة فى القلوب ، والساحات تغص بالفرسان الذين يلعبون البرجاس ويؤدون حركات فرسانية بارعة . وللملك قواده الكبار ، عددهم اثنا عشر كعدد تلاميذ المسيح ، كلهم يخلصون له ويحبونه وعلى راسهم رولاند (بالفرنسية : رولان) وأوليفير (بالفرنسية : أوليفييه) وان كان فيهم ما تدفعه المنافسة الى ارتكاب اعمال مقيتة ، مثل جينيلون . ولقد تلقى شارلمان من السماء تكليفا دينيا بغزو اسبانيا ودعوة المسلمين هناك الى دخول المسيحية ، فاما أن يطيعوا أو يهلكوا بحد السيف ، فيما كانوا يسمونه فى العصور الوسطى بالحروب العادلة .. وتعطى القصة صورة محرفة عن المسلمين فكأنهم يعبدون الأصنام ، واصنامهم تحمل أسماء منها أبوللو — الاله الاغريقى المعروف — ومنها محمد .

وارسل شارلمان الى المسلمين بعثة تنذرهم ، واقترح رولاند ان يتولى هذه البعثة زوج أمه جانيلون ، فحقد جانيلون عليه ، لأنه كان يخاف على حياته ، ويظن أن رولاند قد وضعه فى هذا الموضع الحرج ليقضى عليه ، ولهذا كتمها فى نفسه ، ودبر للانتقام . فلما ذهب للقاء المسلمين وعلى راسهم ملكهم مارسيلى ، كان مزعزع العقيدة ، مشتت الهدف ، يريد ابلاغ رسالة شارلمان ، ويريد فى الوقت نفسه الانتقام من رولاند . فلما قدم الأندلسيون اليه الرشوة ، وأغروه بالمغريات ، نفذ سياستهم ، ولم يأبه لحزن ملكيه ، ولسقوط الأبطال من بنى جلدته وملته .

وتصف القصة المعركة وصفا مفصلا ، تصف الابطال والاسلحة والخطط والحيل ، فقد هجم الأندلسيون على مؤخرة الجيش التى

يقودها رولاند ، ووجد رولاند فرصته العظيمة ، فاما النصر الحاسم أو الشهادة . ولهذا رفض رولاند أن ينفخ فى البوق لينذر الملك شارلمان الذى كان فى المقدمة ، وكلما الح عليه أوليفير ، رفض ، حتى جرح رولاند جرحا بليغا ، ولم يجد بدا من النفخ فى البوق . ولقد سقط فى ساحة القتال بعد أن قتل وحده المئات بل بالآلاف ، وتنزلت عليه الملائكة لتحمل روحه الى ملكوت الرب مع الشهداء والقديسين .

ومن البديهى ان تحكى القصة عن انتقام شارلمان . ولقد جمع الاندلسيون قواتهم ، وتحالفوا مع ملك الفرس ، فأمدهم بقوات على قواتهم ، ولكن شارلمان انتصر انتصارا كبيرا ، وقتل ملك الفرس . أما مارسيلى فمات غيظا ، وأما الملكة برشموندا ، زوجه ، فتدخل فى المسيحية . وتنتهى القصة بمحاكمة جينيلون فى آخن ، فقد دافع عن نفسه بأنه كان فى معركة سافرة معلنة مع رولاند ، ولهذا تقرر أن تبين المبارزة حكم الله وهكذا جرت مبارزة بينه وبين الفتى الصغير تيريش ، فانهزم ، وبهذا تأكدت خيانته حسب قواعد القضاء الربانى التى كانوا يتبعونها فى العصور الوسطى . وأمر الملك الخائن أن يربط الى خيول جامحة ، فمزقته الى أربعة أجزاء .

صاحب الصياغة الألمانية للقصة رجل من رجال الدين ، فى مرحلة انتقالية ، يقل فيها دور رجل الدين كحامل للثقافة ، ويظهر دور الفارس مكانه . وليس من الصعب علينا أن نلاحظ أن الشاعر حافظ على الكثير من الأهداف التربوية العظيمة اللاهوتية ، ولكنه قدم للناس على اية حال قصة من قصص الدنيا ، أبطالها امراء ومحاربون وملوك ، وأحداثها تجمع بين عناصر المغامرة المسلية وعناصر الوصف المبهر ، كل ذلك فى اطار من الفكر الصليبى .

الاستهلال :

يا خالق العالمين
يا ملك الملوك
يا صاحب الحكمة البالغة ،
علمنى انت حقيقتك .

ابعث الى لسانى
علمك القدسى الأول

كى أتجنب الكذب
وأدون الصـــدق
وأنا أحكى عن رجل كريم كيف عاش
وكيف نال ملكوت السموات ..
ذلكم هو القيصر كارل
الذى انتقل الى نعيم الرب
لأنه تغلب بعون الله
على كثير من بلاد الناكرين
وشرف المسيحيين تشريفا عظيما
على نحو ما يذكر اصل الكتاب
كان كارل ابن الملك ببيين
ولقد نال شرفا عظيما وعزة
عندما قهر الناكرين الجاحدين
واضطرهم الى الاعتراف بنور الحق
ولم يكونوا من قبل ذلك
يعرفون الخالق
ولقد ازداد هذا السيد كمالا
وعظمت فضائله
من طفولته الى صباه
ولقد أدخله الرب الآن
فى ملكوته
فهو خالد فيه ابدا
عندما تلقى عبد الله كارل
اخبارا من اسبانيا
واهلها الذين يعيشون حياة منكرة
ويعبدون الأصنام
ولا يتقون الله
ويرتكبون الخطايا الكبيرة
شكا القيصر الكريم الأمر الى الرب
وتوسل اليه بحق الناسوت
والموت على الصليب

أن ينقذ المؤمنين به
وأن تقر مشيئته
على انقاذ الناكرين الكثيرين ايضا
الذين يحوطهم الليل القاتم البهيم
ويضرب حولهم الظلمات المهلكة
- عسى أن ينجيهم من الشيطان
هكذا ابتهل كارل وتوسل

بايمان صادق عميق
والناس كلهم نيام
ودعا الله مخلصا
والدموع تملأ مآقيه

فرأى بعينيه وهو يقظان
ملاكا جاء اليه من السماء
وتحدث الى الملك قائلا :
« يا كارل ، يا عبد الله

هلم الى أسبانيا
لقد سمع الله دعاءك

وسيهتدى الناس هناك على يديك
اما اولئك الذين يصدون عنك
فهم أبناء الشيطان
ومآلهم الخسران المبين
وسيحل بهم غضب الله

فيصيب أبدانهم وارواحهم
والنار مقامهم الى الأبد »

عندما عسكر كارل قرب قرطبة بدات المفاوضات :

فقام مارسيلى (ملك المسلمين فى الأندلس)
والقى خطبة قال فيها :
« أيها الأبطال الاخيار

اعينونا على الخروج من المحنة
فاذا حسمتم الأمر

فسيئول كل شيء اليكم
ويكون ملكا خالصا لكم
فتصرفوا بالفطنة والذكاء
وتواضعوا
من أجل خيركم
أحملوا فى أيديكم
سعف النخل
فقد ساءت احوالنا
وخذوا عشرة من البغال البيضاء
الجميلة الغالية
وحملوها من الذهب الخالص
قدر ما تستطيع
لتستميلوا القيصر
وأنا مستعد للموافقة عن طيب خاطر
أنا ورجالى جميعا
على كل ما يأمر به
وسأقبل الدخول فى المسيحية
وأن أكون عن طيب خاطر
عاملا من عماله
اركعوا عند اقدامه
حتى نحصل على السلام
وهو يعسكر الآن عند قرطبة
توسلوا اليه بحق الرب الذى يعبده
أن يرحمنا ويمن علينا ،
نحن المساكين ،
الذين طال حصارنا
وزادت محنتنا
وعندما يقبل الهدايا
حدثوه حديثا لبقا
عن الهدايا الأخرى التى سأرسلها اليه :
البغال والجمال

والكلاب والصقور
وغيرها من الهدايا
قدموا الى الفرنجة
عربات محملة بالدنانير
تدعم مطلبي وتسانده
وتعينني على استمالة القيصر .
فسار رسله المختارون
على ما بين لهم من طريق
الى بلاد المسيحيين .
وكانوا يلبسون الثياب الفاخرة
ونزلوا الجبل الى الوادى
فرأوا فى كل مكان
جنودا كثيرين
يحمل بعضهم اعلاما خضراء
والبعض حمراء والآخرون بيضاء .
رأوا عالما براقا يشع منه السنا
كأنما صنع من الذهب الخالص الأحمر .
وتناجى الرسل فيما بينهم
وقالوا ما دام الأمر كذلك
فلابد أن القيصر اروع الحكام واعظمهم .
ولن يقدر احد مهما كانت قوته
على الوقوف فى وجهه .
ورأى الرسل فى المعسكر
ابطالا كثيرين من ذوى الجسارة .
ثم اقبلوا على حديقة
جميلة التنسيق والزينة .
وجدوا فيها
الأسود المصورة
تصارع الدببة الشرسة .
ورأوا خيرة الرجال
تمارس القفز والرماية .
وسمعوا من يروى ومن يغني ...

وموسيقى كثيرة تنبعث من الأوتار
وشاهدوا اشياء كثيرة تبتهج لها النفوس
شاهدوا اجناد الطليعة
يبارز بعضهم بعضا ..
كان منهم من يضربون بالسيوف
على أحجار صلبة
فينطلق منها الشرر
ورأوا هناك النسور
قد دربوها على ضوء الشمس الحامية
وتحت الظل الظليل .
وسمعوا دروس الأصول
يتلقاها شباب الابطال الكرام
وكان هؤلاء يتمرنون على الحرب بالترس
وعلى الصيد بالصقور
وصنوف أخرى من رياضة الطيور .
ما أكثر مباهج الدنيا التى توفرت هناك !
كانت هناك صفوة من النساء الكريمات
أخذن زينتهن على نحو رائع
ولبسن المخمل والحرير
وتحلين بحلى من ذهب .
لم تشهد الدنيا منذ موت سليمان
ولن تشهد بعد الآن
روعة تحاكى هذه الروعة .
والحق أن كارل كان ملكا زانته كل الفضائل .
وتقدم اليه الرسل
فانحنوا أمامه حتى سجدوا
وكانوا يلبسون ثيابهم الثمينة
ويمسكون بسعف النخل فى ايديهم .
ثم قاموا وعادوا للسجود
ثم سجدوا وسجدوا وسجدوا .
ورأوا القيصر جالسا
عند رقعة الشطرنج .

وكان وجهه يفيض بالبهجة .
ومحمد الرسل
اذ اتيح لهم التطلع الى محياه
كانت عيناه تلمعان
كنجم الصباح
ولقد عرفوه من بعيد
ولم يكن بهم حاجة للسؤال
عمن يكون القيصر .
فلم يكن هناك من يحاكيه
وكان وجهه يفيض حسنا وروعة .
ولم يكن هناك انسان
يستطيع ان يرفع بصره الى عينيه .
الا أن يبهره سناهما
كما يخطف نور الشمس فى النهار البصر .
كان خصم الأعادى الخصيم
وسند المساكين الرحيم
فى الحرب مظفرا
للاساءة غافرا
وكان عبد الله التقى
والقاضى العادل
الذى علمنا الشريعة والأصول
كما تلقاها من الملاك المنزل بالوحى .
حقا لقد كان عليما بالأصول كلها .
ولم يكن فى الدنيا قاطبة من هو أكرم منه
ووقف بلاتكانديس بين يديه
والقى الخطبة التالية :
« السلام عليك أيها القيصر العظيم
والحب والتمجيد لك
من الله الحى القيوم
الذى خلق من العدم
السماء والأرض
والذي نزل مسيحا من السماء

وجعل العذراء تلده على الارض
وجعله يعمد فى مياه الاردن
فخلص الدنيا من الجحيم
اذ قضى على الصليب ..
كذلك نحن نمجده
ونعيش فى منته
ونريد أن نعتنق المسيحية
ونتوسل اليك أيها الملك ،
بحق هذا الاله ،
لأننا ولدنا ناكرين
وعن ذلك الرب بعيدين
أن تعيننا على تلقى رحمته
حتى لا نموت على الخطيئة » .
وصمت القيصر برهة
ثم اردف بلانكانديس وكان متقدما فى السن :
« فيا أيها القيصر الكريم
ان الملك مارسيلى يضع نفسه
طائعا فى خدمتك
ويتبعه فى مملكته
كل الأمراء .. »

جانيلون يخاف من الموت ويتهم رولاند بالتآمر عليه :

وشحب جانيلون شحوبا شديدا .
ونظرا الى رولاند طويلا
ثم قال : « ها هوذا رولاند النبيل
يبعث بى الى تلك المملكة
حتى اموت بين من لا يدينون بالمسيحية
واترك له الارث كله :
فالويل والثبور لك !
ماذا فعلت بك حتى تفعل بى هذه الفعلة ؟
لقد استبدت الشياطين بروحك .

والآن اتضح المكنون كله وبجلى
انك تريد أن تفتك بى .
مع ان أمك زوجى
وما ابنى (بالديفين)
الا أخ لك .
لقد نسيت محبة الاقارب
ولسوف تندم على ذلك ندما شديد .
واذا قدر لى ان أعود حيا
فسأرد لك ما فعلته بى
الصاع صاعين بل اكثر بكثير .
ولسوف تسمع منى أخبارا
لقد بدات الآن محنتى العصيبة .
وربما أدركنى الموت فى بلاد غريبة .
فالتفت اليه كارل العظيم
وقال له قولا رقيقا :
« لا تتكلم على هذا النحو
يا جانيلون ، يا زوج ابنتى ،
انت أمير حكيم أريب
فلا تغضب هكذا وتغتاظ
واقترب منى هنا
لتتلقى المهمة من فمى
واذهب رابط الجأش
وتصرف بحكمة وفطنة
فاذا فعلت ما تشرف به مملكتك
فان أهلك سيفخرون بك الى الأبد » .
فامتنع جينيلون طويلا
وتقدم اليه القيصر القفاز
ولكنه نظر نظرات كنظرات الذئب
وعاد يصيح من جديد :
« الذنب فى رقبتك يا رولاند .
ولابد ان تدور عليه الدوائر
وعلى رفاقه الزعماء الاثنى عشر

الذين فرضوا رأيهم فرضا .
وعاد القيصر يقول له :
« لا عليك ان تقلق
فانت حقيقة محبب الى .
وانت لا تخرج لهذه المهمة بناء على رأى رولاند
بل انا الذى أكلفك بهذه المهمة
فلا تجاوز الحدود فى الشكوى .. »
وعاد القيصر فقدم اليه القفاز
فشحب جانيلون وبهت
وساء لونه سوء شديدا
ونظر الأمراء جميعا اليه .
فقدم اليه القيصر عصاه ..
وما مد اليه القيصر يده بالقفاز
حتى تركه يقع على الارض ..
وساء الجميع
أن يقدم القفاز اليه عدة مرات
وقالوا ان ذلك فأل سيء
وان حادثة قبيحة ستحدث له لا محالة .
وانه لم يتلق تكليف القيصر على النحو اللائق .
وارتمى جانيلون على قدمى القيصر
وقال له : يا مولاى ، ألا تحسب حسابا
لأن اختك زوجى .
اذا انا مت
فان رولاند سيضع يده على ميراثى .
وسينبذ ابن أختك نبذا ..
وماذا يمكن لامرأة أن تفعله ضده ؟
وسيظل الصغير « بالديفين »
يتيما الى أبد الآبدين .
ولن ترانى عيناك بعد الآن . »
والقى بمعطفه على الارض وقال :
« (بازانى) و (بازيلى) وسولان
لم يعودا حتى اليوم . لماذا ؟

لأنه قد قطع رقابهما ..
انني ذاهب الى موت مؤكد محتوم .
وشرع يبكى بدموع ساخنة .
وأردف : « انني سأفارق هكذا
اجمل امرأة فى الوجود
اقترن بها رجل على الاطلاق .
لقد اساء رولاند التصرف
وسوف تتحطم اسبانيا كلها نتيجة لفعلته
ولكن ساعة ستأتى،
ــ اذا أبقانى الله على قيد الحياة ــ
يندم فيها على قراره
ذلك الذى نال به منى وآذانى .

اتفاق العرب مع جينيلون :

وذهب الأمراء والوجهاء
الى جينيلون
وكان يقف تحت شجرة صنوبر
وقد ارتسمت على محياه سمات العظمة
حتى انهم قالوا ، انهم لم يتعرفوا من قبل الى رجل
له ماله من الهيبة والجلال .
وقالوا انه يليق بصحبة القيصر
وامتدحوه وقرظوه ..
وقالوا انه بطل عظيم
اذ أنه لم يقبل من الملك
أن يضربه على رأسه .
فلما تقدم جينيلون بين يدى الملك
بش الملك فى وجهه
وقدر كبرياءه وتعاليه
ومد اليه يده مصافحا .
وقال له : « يا جينيلون ، أيها الرجل الحبيب ،
انني أريد ان أصلح كل خطأ

انطأته حيالك » ..
وخلع عليه عباءة ثمينة
موشاة بالذهب
وقال له : « البسها اكراما لى !
لك أن تأخذ منى ذهبا
لا يحصى ولا يوزن
ولك ان تتآمر على مملكتى .
من أقصاها الى أقصاها .
وانا كذلك تحت أمرك
ومثلى الأمراء
يمكنك ان تأمرهم على ما يحلو لك .
ونحن نريد أن نكون نعم الأصدقاء .. »
وتعانقا
وتبادلا القبلات
وتصافحا .
وكان الوفاق محببا اليهما جميعا .
وقال الملك مارسيلى :
انك يا جينيلون ، رجل شهم
وانا أرجو ان تقبل منى
أن أنصح لك بما أفكر فيه .
من الذى أعطى كارل الحق
فى ان يستخدم القوة
للاستيلاء على مملكتى
وتجريدى من سلطانى ..
وماله يكابر
فيفكر فى قهر العالم كله
والسيطرة عليه ؟
ولقد سعى الى ذلك طويلا
وأصبح اليوم رجلا مسنا .
ولابد أن يكون قد تعب
من الأعمال الكبيرة

فيا ليته يدع الامراء فلا يثقل عليهم
ويا ليته يدع لى مملكتى .
ولكننى لا أريد الاساءة اليك بهذا الكلام .
فاجاب جانيلون :
« اسمح لى يا سيدى
بأن أقول شيئا
كارل رجل عظيم الفضائل
رجل مخلص ممتاز
ولو أن الكتاب المجيدين
أرادوا أن يصفوا حياته العظيمة
لما انتهوا الى نهاية .
انه ملك كرمه الله ونعمه
وهو يود أن يموت فى سبيله
وليس له فى أمره خيرة
فقد أمره الله بأن يهدى الى الدين
من لم يؤمنوا وظلوا ناكرين .
ونحن نعينه طائعين راضين . »
فقال مارسيلى :
« انا لا أجد غضاضة
فى انه يمجد الرب
ويعبده فيكثر من عبادته .
وكارل محارب شجاع
ولكننى أرى أنه من الظلم
ان يأتى ليجردنى من مملكتى
وليعطيها لآخر
ليكون صاحب الأمر والسلطان عليها » .
فأجاب جينيلون :
« الذنب ذنب رولاند
الذى لا يكاد يطيق على ذلك صبرا .
ويسانده (أوليفير) و (توربين)
وقد انعقدت نيتهم وصحت عزيمتهم
هم والزعماء الآخرون

على أن يقتلوك
وأن يزحفوا على بابيلونيا
حتى يقسموا الدنيا فيما بينهم
فما بهم من طموح لا يقف عند حدود العقل . »
فقال مارسيلي الذى لا يدين بالمسيحية :
« يا ليت محمد
سيدى الذى أصلى عليه وأسلم
يعيننى على قتل الزعماء
الاثنى عشر المتهورين
حتى يسود السلام !
ولو اننى قتلت القيصر نفسه
لتخلصت يقينا
من كل الهموم والبلايا
التى يخبئها لى المستقبل » .
فقال جينيلون :
« القيصر كارل
رجل لا يمكن أن يقتله احد
لأن الله يحميه .
وهناك عشرون الف رجل يحرسونه
رجال من أولى العزم والتصميم
لا يتزحزحون ولا يتفرقون ..
فاذا اردت نصيحتى أيها الملك
فاننى أقول لك ما ينبغى عليك ان تفعله :
عليك أن تجمع رجالك مسرعا
وتضم صفوفهم
وانتظر اللحظة التى يعود فيها القيصر
ولا تكشف قواتك قبلها وتعجل
والا حلت بك كارثة محققة !
ولا تطل الانتظار وتبطىء ..
فاذا فعلت هذا وقع الجميع فى يدك .
ولن أتركك أو اتخلى عنك
بل سأرسل اليك الخبر اليقين .

وعليك انت أيضا أن تبث العيون

لينذروك ويخبروك

بكل ما يحدث .

ولا تأخذنك شفقة أو رحمة

وأعد الكمين اعدادا حصيفا

وانهم لواقعون فيه جميعا .

فاذا دققت أعناقهم دقا

فلن يحتمل القيصر الصدمة

وسيموت كمدا بكل تأكيد .

ولن يؤذيك أحد بعد ذلك أبدا » .

فقال له الملك مارسيلي :

« انا سعيد جدا بكلامك . »

وطبع قبلة على فمه .

الباب الخامس

القصة الشعرية في عصر الفرسان

كان كارل العظيم او شارلمان قد وجه الثقافة فى زمانه وجهة دينية تبشيرية فى المقام الاول ، وكانت اللغة اللاتينية وما دون بها من مؤلفات تلعب دورا أساسيا حتى ان النقاد يسمون عصر كارل وخلفائه عصر الرينيسانس الكاروليبخي .. فلما دب الضعف فى الأسرة الكارولينجية وتولى القيصر (أوتو) الأول أو (أوتو) العظيم الحكم (٩٣٦ ـ ٩٧٣) عادت فى عصره وعصر خلفائه المؤسسة الثقافية الى صورتها الأولى التى تجمع بين الدين اولا والعلوم القديمة المدونة باللاتينية ثانيا ، ويضطلع بها على اية حال رجال الدين . وكانت الأديرة ـ وبخاصة دير فولدا ـ أماكن يجتمع فيها حملة الثقافة ، او ينطلق منها اصحاب الفكر والمحبون للادب والفن من منطلقات محددة ، ولهذا نلاحظ أن عصر أوتو العظيم وابنه وحفيده لم تنتج شيئا من الأدب الألماني .

وقد شهد القرن الحادى عشر ـ الذى يرتبط مطلعه بالقيصر هاينريش الثانى ابن اوتو الثالث ١٠٠٢ ـ ١٠٢٤ ـ حركة التجديد الديني القاسية التى خرجت من الدير الفرنسى الشهير : دير كلونى ، كان اهل الفكر فى هذا الدير يرون ضرورة البعد بالدين عن الأمور الدنيوية ، وينادون بمزيد من التنسك والرهبانية . كذلك حرص أهل الفكر فى هذا الدير على تطوير الفلسفة الاسكولائية أو المدرسية الساعية الى اثبات حقائق الدين بما يصلح من فلسفة الاقدمين . وواكب هذا الاتجاه اتجاه آخر الي الصوفية والتأكيد على أن الفلسفة لا تقود خطى الانسان الى الحق ، بل التأمل الصوفى هو الذى يصل بالانسان الى الذوبان فى الله . ومن هذا الدير خرجت الدعوة الصليبية التى تزعمها برنار دى كليرفو (١٠٩١ ـ ١١٥٣) وخرجت مفاهيم متعددة احدثت تطورات لم تكن هي المقصودة ، ولكنها حدثت ولم يكن من سبيل الى ردها أو تعديلها ..

تكونت على سبيل المثال طبقة الفرسان التى تحملت بمهمة الحرب من اجل الأهداف الدينية اولا ثم ما لبثت أن اصبحت قوة سياسية واجتماعية وثقافية مستقلة بعد ذلك . وما تولى القيصر فريدريش باربارسا العرش (١١٥٢ — ١١٩٠) حتى كانت الثقافة العلمانية هى الثقافة الغالبة . وقد سجل له التاريخ مواقفه من الكنيسة . وسعيه لتخليص الفرسانية من قبضة الكنيسة . وقد رأينا فى الباب السابق كيف تحول الشعراء الى الموضوعات العلمانية تحولا تدريجيا . بدأ بمزج الأهداف الدينية الوعظية التبشيرية بأهداف التسلية . فما كان الشعراء حتى ذلك الحين الا من رجال الدين . ثم انطبع على يد الشعراء العلمانيين بطابع التسلية فى قصص شعرية امتلأت بالمغامرات والخرافات والأعاجيب وصنوف التحايل والتخفى .

تحددت معالم الثقافة الفرسانية فى القرن الثانى عشر وامتدت آثارها الى القرن الثالث عشر . وكانت أروع فترات الازدهار فى العصر الوسيط . ويعتبر الحفل الضخم الذى أقامه القيصر فريدريش باباروسا فى عام ١١٨٤ فى مدينة ماينتس واجتمع له سبعون ألف من وجهاء الألمان والفرنسيين شهدوا ابنى القيصر يرسمان فارسين ، علامة بارزة تؤكد دور الثقافة الفرسانية التى مثلها الى جانب الفرسان من طبقة الاشراف الاحرار فرسان من المحررين الذين برزوا بأعمال عظيمة نالوا عليها اقطاعيات كبيرة أو صغيرة .

وتقوم الثقافة الفرسانية على اساس خلقى محدد يتكون من مجموعة من القواعد المثالية والفضائل والأهداف السامية التى حاولت أن تحل المشكلة الكبرى التى كان انسان العصر الوسيط يواجهها وهى مشكلة التوتر الدائم بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، بين النواحى العلمانية والنواحى اللاهوتية ، بين الجمال والخطيئة . ولم تكن المحاولة ناجحة فى كل الأحوال ، فتارة تذوب الثنائية المتوترة ، وتارة تظهر عاتية عنيفة أو ترسل من مكمنها العميق لمحات وومضات .

على الفارس أن يأخذ نفسه أولا بالاعتدال بين كل الأمور . والطريق الى الاعتدال هو الادب أو تأديب النفس على حياة متوازنة منسجمة ، ولابد للادب والتأدب من الهمة التى تحرك قوى الانسان دون أن تصل بها الى الغرور أو الزهو — والفارس لا يقع فريسة لليأس أو الحزن ، بل ينعم بالبهجة ويظل قرير العين ، مغتبط الفؤاد فى كل ظروف الحياة . والفارس مكافح فى المقام الأول ، لا يندفع الى

سفك الدماء ، بل يسعى الى مساعدة الضعفاء والمحصورين وتحقيق ما يرضى الله . وهو يتمسك بالاخلاص كل التمسك ، وهو ثابت على العهد لا يتغير ولا يتلون ، وهو عزيز بين اقرانه ، حليم مع من هم دونه . ويلعب الحب دورا كبيرا فى حياة الفارس ، وهو حب من نوع خاص ، حب عفيف يضفى النبل على السلوك ، ويحفز الفارس بما يحسه من حنين الى ارضاء المحبوبة والقيام بالأعمال العظيمة من أجلها . ومولاة الفارس عادة امرأة رفيعة القدر قد تكون زوج نبيل عظيم يشمل الفارس بفضله ويسبغ عليه من نعمه .

وقد بينت الأبحاث الكثيرة التى أجريت على مقومات الثقافة الفرسانية والأخلاق الفرسانية انها تأثرت تأثرا كبيرا بالثقافة العربية التى ازدهرت فى الأندلس ابان الحكم العربى بين القرن الثامن والخامس عشر الميلاديين ، وتغلغلت عن طريق جنوب فرنسا الى العالم الغربى كله . كذلك تأثرت بالثقافة العربية فى المشرق عن طريق التجارة والرحلات ، ثم عن طريق الحروب الصليبية .

واذا كان الشعراء الالمان فى هذا العصر قد ساروا على نهج الشعراء الفرنسيين وبخاصة كريتيان دى طروا ، وحرصوا على التأكيد على رجوعهم الى « المصدر » أو « الكتاب » فانهم حافظوا على سماتهم المميزة واصالتهم . وينطبع ادب هذا العصر — واكثره من نوع القصة الشعرية وأغانى الغزل — بطابع حياة البلاط الذى عاش فيه الشاعر الفارس ووجد فيه الجمهور المتفهم الواعى ، والأمير صاحب الايادى البيضاء . ولهذا يطلق النقاد على أدب هذا العصر اسم الأدب الفرسانى البلاطى .

واكبر شعراء العصر القصاصين :

— هاينريش فون فيلدكه
— هارتمان فون أوى
— جوتفريد فون شتراسبورج
— هاينريش فون فيلدكه

هاينريش فون فيلدكه

ليست لدينا معلومات كثيرة عن هاينريش فون فيلدكه ، وأكثرها مستنتج من كتاباته هو ٠ويمكننا أن نقول انه عاش فى الفترة بين منتصف القرن الثانى عشر ومطلع القرن الثالث عشر ٠ والمؤكد أنه عاصر الحفل العظيم الذى رسم فيها ابنا القيصر فريدريش بارباروسيا فارسين (١١٨٤) ٠ كذلك تبين كتاباته أنه كان واسع المعرفة ، وأنه كان متمكنا من فنه الى درجة وضع تقليد شكلى فى القصة أخذ به الأدباء فيما بعد وهو استخدام بحر من الشعر له أربع نبرات وينتهى بقافية ٠ وينتمى هاينريش فون فيلدكه الى طبقة المحررين ، ويبدو أنه كان فى خدمة آل فون لون فى منطقة ماستريتش التى تقع حاليا فى هولنده ٠

وقد سرق منه بعضهم مخطوط قصته الشعرية « الانيادة » التى كان قد أتم منها نصفها ، وذلك فى أثناء الاحتفال بزفاف الجريفين (البارونة) (فون كليفه) ، ولم يسترد المخطوط الضائع الا فى عام ١١٨٣ أعاده اليه الأمير (هرمن التورنجى) الذى كلفه باتمام القصة فأتمها بالفعل فى عام ١١٩٠ ٠

الانيادة

أنشأ الكاتب الرومانى فيرجيل فى القرن الأول بعد المسيح على نسق الملحمة الهومرية ملحمة « الانيادة » التى حكى فيها قصة لبطل انياس وكيف بقى بعد طروادة حيا وسار مغامرا الى أن وصل الى قرطاجة ثم لاتسيوم حيث تزوج (لافينيا) وشيد روما ٠ وتناول شاعر فرنسى مجهول هذه الملحمة وأنشأ منها فى الربع الثالث من القرن الثالث عشر قصة شعرية هى « قصة انياس » ٠ وجاء هاينريش فون فيلدكه فصنع من هذه القصة الفرنسية ، مترجما حينا ، ومبدعا أحيانا ، قصته الطويلة ذات الثلاثة آلاف بيت ٠

وتتلخص الأحداث التى ترويها القصــة فى هروب البطل انيـاس من طروادة بعد الخراب الذى حل بها . ووصوله الى قرطاجة بعد مغامرات وأهوال كثيرة . وفى قرطاجة يلقى انياس استقبالا كريما ويتعـرف الى ملكتها ديدو التى تعشقه عشقا يتجاوز كل الحـدود . ولكن انيـاس لا يستطيع الاستجابة لها ، والارتباط بها لان الآلهه تأمره بأن يسلك طريق العودة . وما تعلم الملكة ديدو بهذه النية حتى تفقد السيطرة على نفسهـا الى درجة اليـأس ثم الانتحار . وتأتى بعد ذلك رحلة انيـاس الى العالم السفلى بعد لقـاء العرافة ، ووصوله الى مصب نهر التيبر ، ودخـوله فى معارك كثيرة من أجل ايطاليا وأخيرا اتصاله بالملك (لاتينوس) وابنته (لافينيا)التى يود أن يتزوج بهـا . الا أن الملك (تاونوس) الذى كان يامل الظفر بها يغتاظ ويجمع جيوشه ويهـاجم الملك لاتينوس ، وتقـوم معارك كثيرة تنتهى بمبـارزة بين تاونوس وانيـاس . وينتصر انيـاس ويتزوج (لافينيا) ويقـام للزفاف حفل رائع يتسم بالابهة كل الأبهة . وتشير القصـة فى ختـامها الى بنـاء رومـا التى ستفرض سيطرتها على الدنيا .

ومن الواضـح أن هذه القصـة الشعـرية تقف على أبواب عصـر الرومانية دون أن تمثل مفاهيمه تمثيلا خالصا . فما زالت المعارك معارك حرب لا معـارك شـهامة ، ومـازال الحديث عن الحب يحـاول التمييز والتوضـيح . وقد برع هاينريش فون فيلدكه فى التحليـل النفسى للشخصيات وفى تصوير انعاكاسـات الحب بأنواعه المختلفـة عليها . وقد لاحظ النقاد أن الشاعر الألمانى الوسيطى قد أدخل تغيير جوهريا على مسار الأحداث فقلل من دور الآلهـة وعظم دور الحب . واذا كان الحب العنف المجنون ينشأ سريعا ويندفع الى التحطيم (حب ديدو) فان الحب المنضبط الذى يحكمه الأدب والاعتدال (حب لافينيا) يؤدى الى البهجة الفرسانية ويثبت أركان النظام الفرسانى البلاطى .

حوار عن الحب :

فلما تم الاتفاق على النزال
بين تورنوس وانياس
واشتاق كلاهما اليه
واستعدا له
بالأفكار الكثيرة والتدابير العظيمة

ذهبت الملكة
ذات مساء فى وقت متأخر
الى حجرتها ·
وجلست الى ابنتها
الفتاة الحسناء
وبدأت معها حديثا
ساقته على نحو بديع
وبمقدرة وفهم عظيم ·
قالت الملكة :
« لافينيا ، أيتها الحسناء ،
يا ابنتى الحبيبة .
ربما قد حدث ما حدث من أمور
أن يكون أبوك قد حال بينك
وبين خير كثير وعزة ·
والبطل العظيم تورنوس
الذى يسعى لنيل حبك أشد السعى
جدير بسعادتك
حتى انه يعجبنى ويرضينى ·
ولو كان حظك من الجمال والطيبة
قدر ما أوتيت منهما الف مرة
فما كان يجوز لنفسك
الا أن تهفو اليه هو ·
واننى لأريد منك أن تحبيه
وأن تعترفى وتقرى
بأنه أمير نبيل ·
ولهذا فاننى أنبهك
الى البطل العظيم ·
أما انياس الغضوب
الطراودى الخائن
الذى تودين لو أصابته اصابة قتلته
فلك الحق كل الحق
فى أن تغضبى منه

وفي أن ترفضي رفضا قاطعا
أن تعيريه اهتماما
فهو يريد أن يحصل عليك
قوة وغصبا ·
انه لا يسعى الى حبك
تقديرا لذاتك وصفاتك
بل هو يرمي الى هدف آخر
انه يريد أن ينالك
لكي يرث ملك أبيك ·
أما اذا أردت السلامة
وسعيت الى السعادة
فأحبي يا ابنتي تورنوس ·
« وكيف يمكنني أن أحبه ؟ »
« تحبينه بالقلب والحواس جميعا · »
« أفينبغي على أن أعطيه قلبي ؟ »
« نعم . عليك أن تفعلي ذلك »
« فكيف أعيش ان أنا أعطيته قلبي ؟ »
« لا أعني أن تعطيه قلبك بالمعنى الحرفي » ·
«فكيف أجعل روحي تنعطف الى رجل ؟ »
« الحب هو الذي يعلمك كيف · »
« بالله عليك خبريني ما الحب ؟ »
« الحب منذ البداية
سيطر بقوته على الدنيا كلها
وسيزيد سلطانه على مر الزمان
وسيظل أمره هكذا الى يوم الدين
لن يستطيع انسان
أن يقاومه
لأن الحب كما خلقه الله
لا تراه العين ولا تسمعه الأذن · »
« أماه ، مولاتي ، أنا لا أعرفه · »
« ستعرفينه يوما ···

وربما أعيش حتى اشهد اليوم
الذى تعرفيين فيه الحب ·
عندما يمتلك الحب قلبك
ستجدين الدنيا امتلأت بهجة · ،
« لا أعرف يا مولاتى من الأمر شيئا ،
وأنت تعرفين كل شيء بكل تأكيد ·
فقولى لى ما الحب ···
فتكلمت الملكة :
« من صفات الحب
أنه لايوجد انسان مهما كان
يستطيع أن يبينه لانسان آخر
يكون قلبه كالحجر
فلا يستطيع الحب أن يدخله ·
أما من انعطف اليه
وحول قلبه اليه
فانه سيعلمه الكثير
سيعلمه ما لم يكن يعلمه من قبل ·
الحب يجعل الانسان مجروحا عليلا
سواء كان رجلا أو امرأة
ويعكر عليه قلبه وحياته
وحواسه جميعا
ويجعل اللون شاحبا
شحوبا شديدا
الحب يجعل الانسان تارة باردا
ويجعله تارة أخرى ساخنا
حتى لا يدرى الانسان ما يفعله ·
هذه هى أسلحة الحب
انه يمنع الانسان من النوم
ومن الأكل والشرب
ويدفع الانسان الى التفكير
الذى يشغل البال ويكثر الهموم

ومهما كان الانسان من القوة
فانه لا يستطيع أن يتقى الحب
ولا أن يشفي منه قلبه
ليس لانسان على ذلك قدرة ·
ـ فهل الحب عذاب ؟
لا ، ولكنه قريب من العذاب ·
وأنا أتصوره انه أقوى
من المرض ومن الحمى ·
وأنا أتصور أن المرض والحمى
أيسر عليك من الحب
فالحب بحرارته وبرودته
اشد من الحمى ·
ومن يتملك الحب قلبه
يعانى من كل هذا ·
ـ اذا كان الحب هكذا
فانى أدعو الله أن يبعده عنى ·
ـ لا ، ان الحب خير كثير ·
ـ فلماذا تقولين انه يؤلم ؟
ـ ان عذابه كله عذوبة
ـ عسى الله أن يستجيب دعائى
ويبعد عنى الحب
ويمنعه عنى
فكيف يمكننى أن أتحمل هذا البلاء ؟

ولكن الأم قالت لها :
« لا تخافى من العذاب
وانتبهى الى ما سأقوله لك :
كثيرا ما تأتى البهجة من المعاناة
وكثيرا ما تأتى الراحة من التعب ·
وفى هذا عزاء وسلوان ·
الدعة تأتى من الجهد

ومن الراحة يأتي النعيم
والسعادة بكل أنواعها وصنوفها .

وكذلك الحزن يقوى الروح
والخوف يعلم رباطة الجأش
حقيقة أن الصحة تعتل
ولون البشرة المشرق يشحب
لكن الرهبة تمنح السلوان
وما يبلغ الانسان الخلاص الا عن طريق الألم .
والحرمان يضفي على القلب الثراء
ولكن الحب عنده لكل هذه الآلام دواء
عنده العلاج الذي يشفيها .

– « ولكن الحب يظل في البداية مرا
حتى نكشف عن رقته »
– « أنت لا تقدرينه قدره
انه يشفي حتى المجانين »
– « ولكن العذاب في البداية كبير .
– « وكثيرا ما يؤدي الحب
الى شفاء الجراح
دون مرهم أو ترياق . »
– « المعاناة في البداية طويلة . »
– « وهكذا أمر الانسان مع السعادة
يعاني الانسان العذاب طويلا
ويعيش وسط المعاناة والجهد
ويذوق الصعاب بسبب الحب
كما قلت من قبل وأفضت
ثم تأتي البهجة والراحة
ويأتي الشفاء القريب
فيصلح القلب ويداويه
ويفيء على الوجدان بالسلوان
ويعود عليه بالخير العميم
أكثر مما يحتاجه ثلاثين مرة .

عليك أن تقرى بصحة كلامى
ولكم رأيت رب الحب
السيد آمور مصورا
فى المعبد الذى يدخلون فيه
مصورا فى الداخل قبالة الأبواب
انه يمثل الحب
الذى يسيطر على الدنيا كلها
انه يحمل جرابا فى احدى يديه
وفى الأخرى سهمين
يصيب بهما اصابة آكيدة أليمة
كما ساقول الآن
أحد السهمين من ذهب
وآمور يستخدمه دائما بغير انقطاع
فمن أصابه بجرح
من هذا السهم
يحب حبا عظيما
ويعيش نشيطا سعيدا ·
أما السهم الثانى فمن الرصاص
واليك خبره :
الانسان الذى يصاب بجرح منه
فى داخل قلبه
يظل عصيا على الحب الحقيقى ·
انما هو يعانى الكمد
مهما جرى عليه من الحب ·
وهو لا يسعد بالحب ·
واذا أردت أن تعرفى
معنى الجراب
ـ وجميع الناس لا يعرفون معناه ـ
فانتبهى الى كلامى تماما :
انه يحتوى على مراهم :
أعدها الحب ·

فهي تخفف كل تعب
وتصلح كل كسر
وتعالج كل جرح
يحدثه الحب في الانسان ·
وهي يعطي
البهجة بعد السقم ·
وعليك أن تلاحظي
أن الاثنين ينجمان عن الحب :
البهجة والسقم ·

جوتفريد فون شتراسبورج

وما دمنا تعرضنا فى الصفحات السابقة للحب وأحواله كعنصر من العناصر الهامة فى ثقافة عصر الفرسانية ، فيمكننا أن ننتقل الى جوتفريد فون شتراسبورج وقصته العظيمة « تريستان وايزولد » . ونحن لا نعلم عن هذا الشاعر الا القليل . يمكن أن نستنتج من كنيته أنه من أهل مدينة شتراسبورج الالزاسية ، ويمكن أن نستنتج من حديث المعاصرين له أنه لم يكن من طبقة الفرسان أو المحررين . ولم يسمه أحد « السيد جوتفريد » . ومن الواضح أنه لم يكن من رجال الدين ، وأنه كان واسع العلم ، ممتازا فى فنه ، متقنا للغة الفرنسية . ومن المحتمل أن يكون قد رفع يده عن البيت رقم ١٩٥٤٨ من قصته الوحيدة « تريستان وايزولد » حول عام ١٢١٠ . ولعله اذ ذاك مات لأنه ترك القصة ناقصة لم يتمها .

تريستان وايزولد

تشير القصة فى البداية الى الأمير (ريفالين) وانتصاره على مورجين ثم تنتقل الى وصف رحلة ريفالين الى الملك مارك . ملك كورنيفال وانجلترة الذى استقبل الضيف استقبالا عظيما ، وأقام حفلا تبارى فيه الفرسان ، وشارك فيه (ريفالين) ، فتفوق على أقرانه ، وأعجب النساء اعجابا يفرح له الفارس ويسعد به . وكانت أخت الملك مارك - الحسناء بلنشفلور - أكثر النساء اعجابا بريفالين ، بل انها أحبته فأحبها . وتصف القصة المعارك التى خاضها ريفالين قبل أن يتزوج ببلنشفلور ، وتنتهى الى مولد تريستان الذى قدر عليه أن يشب يتيما ، فقد مات أبوه قبل مولده ، ثم ماتت أمه عقب الوضع .

ونشأ تريستان كما ينشأ الفرسان العظام ، وظهرت مواهبه فى وقت مبكر حتى انه وصل فى مغامراته الى بلاط الملك مارك وشارك فيما

يطلب الى الفرسان المشاركة فيه من أعمال الشجاعة ، ثم خرج لمبارزة العملاق الهائل (موروولت) فهزمه ، ولكن العملاق موروولت أصابه بجرح من سيفه المسموم . عجز الأطباء عن مداواته . وكانت أخت العملاق موروولت ملكة ايرلنده الوحيدة التي تعرف كيف تعالج مثل هذه الجراح بمرهم من صنعها . فذهب الى ايرلنده وتنكر في زى شاعر مغن أسعد الملكة بموسيقاه وغنائه فعالجت جرحه وعينته في بلاطها معلما ليعلم ابنتها الحسناء ايزولد الشقراء الموسيقى والغناء . ثم جاء اليوم الذى رحل فيه عائدا الى بلاط خاله الملك مارك .

واستقبله الملك استقبالا عظيما وجعله وريثا له مما أثار حقد الكثيرين عليه . وكلف مارك تريستان بمهمة السفر الى ايرلنده وطلب يد ايزولد لتكون زوجا له . ولم تكن المهمة سهلة لأن تريستان خشى أن تعرف الملكة أنه قاتل أخيها ، فلن يكون من الممكن أن يذهب متنكرا في هذه المرة . ومهد تريستان لمهمته تمهيدا جيدا ، فدخل في صراع مع التنين التى كانت تسبب الرعب لاهل ايرلنده مما حدا بالملكة أن تزوج ايزولد ممن يقهر التنانين . وقضى تريستان على التنانين . وتغلب على الصعاب ، وتمكن من اقناع الملكة بأن تقبل مارك زوجا لابنتها ايزولد . وبدأ الاستعداد لسفر ركب العرس الى كورنيفال . وأعدت الملكة شرابا سحريا ليشربه مارك وايزولد ، وهو شراب يربط القلوب بالحب الى الأبد ، ولم تعلم بأمره سوى الوصيفة برنجين . وفي الطريق حدث المحظور . فقد شرب تريستان وايزولد خطأ كأس الشراب السحرى فاذا بالحب يجمع بينهما ، واذا هما ينعمان بكل ما يمكن أن ينعم به المحبون من متع .

فلما بدت كورنيفال في الأفق أحس تريستان وايزولد بالاثم ، ولكنهما قررا أن يستمرا في الحب ، والاستعانة بالوصيفة المخلصة لها برنجين ، واللجوء الى الحيلة والخديعة مع مارك . وعلى الرغم من زواج مارك وايزولد رسميا فقد استمرت علاقة الحب الخاطىء بين تريستان وايزولد . ولقد نجح الاثنان في خداع الملك فلم يلحظ شيئا الى حين . فلما كثرت الأقاويل لم يتعجل الملك مارك الحكم ، بل قرر أن يتثبت أولا . وكثرت الوشاية ، وكثرت محاولات الملك لمفاجأة المحبين والتجسس عليهما . فلما أعيته الحيل قرر أن يلجأ الى الطريقة المعروفة في الأزمنة القديمة ، وهى مطالبة المتهمين بالامساك بحديد متأجج ، فاذا كانوا آثمين أحرقهم ، والا فان النار لا تحرق بريئا . وتمكنت ايزولد من

تجاوز هذه المحنــة ٠ فما كان من الملك الا أن نفى تريستان وايزولد ، فذهبا الى الغــابة وعاشا هناك فى كهف الحب الرائع الذى يصفه الشاعر وصفا مستفيضا ٠ ثم عاد مارك فعفا عنهما ، ظنا منه انه ظلمهما . ولكنهما لم يستطعا مقــاومة الحب وعادا سيرتهما الأولى حتى رآهما مارك مرة متعانقين فى الحديقة ، فأنزل بهما العقاب ، ونفى تريستان من الأرض ٠

ورحل تريستان الى نورمانديا ، ولكنه ظل على حبه لايزولد الشقراء يدفعه هذا الحب الى المغامرة وخوض المعارك ٠ وما زال تريستان يحقق الانتصارات حتى قربه الأمير اليه ، وعرض عليه أن يزوجه من أخته وكان اسمها أيضا ايزولد ، ايزولد بيضاء اليدين ٠

هذا هو الجزء الذى أتمه جوتفريد ٠

والصياغات الأخرى للقصة تجعل تريستان يتزوج ايزولد بيضاء اليدين ولكنه لا ينسى ايزولد الشقراء . ويحتال بكافة الوسائل للوصول اليه ولقائه . تارة متخفيا على هيئة مريض . وتارة اخرى على هيئة مجنون ـ ويحدث أن يصاب تريستان فى احدى المعارك بجرح مميت ٠ ويرسل فى طلب ايزولد الشقراء لتعالجه بمرهم أميا السحرى ، ولكن الزوجـة تحس بالغيرة وتخفى عنه قدوم ايزولد الشقراء فيموت،كذلك تموت ايزولد الشقراء عندما ترى جثته ٠ ويتأثر الملك مارك عندما يعلم الخبر ويعرف أن الحبيبين كانا يتصرفان تحت تأثير الشراب السـحرى ، ويعفو عنهما ويدفنهما فى مقبرتين متجاورتين ، فاذا بشجرة تخرج من مقبرة تريستان وتمد فروعهــا الى مقبرة ايزولد ، وكلما قطع الناس الشـجرة نمت من جديد ومدت فروعها الى حيث ترقد الحبيبة فى مثواها الأخير ٠٠

وهناك دراسات جادة تناولت العلاقة الممكنة بين مادة هذه القصـة وعناصر قصصية عربية من قصة ليلى والمجنون وقصة قيس وليلى ولبنى وغيرها ٠

وقد اعتمد جوتفريد على «مصادر» القصة متبعا التقاليد المتعارف عليها فى زمانه ٠ وقد سبقه الى تناول القصـــة كريستيان الطروادى فى نص لم يصل الينا . كذلك سبقه الشاعران بيرول وتوماس ٠ وينبغى أن نشير أيضا الى الشاعر الألمانى أيلهارت الذى خلف قصـــة شعرية باسم « **تريسترانت وايزالده** » يحتمل أن يكون قد أتمها حول عام ١١٨٠ ٠ ولكن قصة جوتفريد جاءت ككل عمل أصـيل درة رائعــة فى مضمونها وشكلها ، بقيت على مر الزمان تسعد القراء وتلهم الشعراء المبدعين ٠

شراب الحب السحرى :

وبينما عكف تريستان

ورجاله على شئون الرحلة

يعدون للسفر ويحضرون له

قامت الملكة أيزولد

الملكة المحنكة الأريبة

باعداد شراب الحب

فى قدح من الزجاج صغير

ولقد صنعته عن تدبير

ومعرفة بأدق خبايا العلم

ووضعت فيه سرا أكيدا

وقدرة لا تخيب :

فاذا شرب منه انسان

مع انسان آخر

يندفع ، دون فكر منه أو تدبير .

الى حب عارم أقوى من كل شىء ،

كذلك الآخر يحبه وحده دون سواه ،

ويرتبط الاثنان عن قدر محتوم

برباط يجمعهما فى الموت والحياة

والحزن والفرح .

وأخذت المرأة الأريبة هذا الشراب

وقالت لبرنجين بصوت هامس خفيض :

برنجين ، يا عزيزتى وابنة أخى

أرجو ألا يقع كلامى ثقيلا عليك

لقد اخترتك لترافقى ابنتى

فاستعدى وتجهزى .

واسمعى وعى ما سأقوله لك ،

خذى هذا القدح بما فيه من شراب

فاحفظيه وصونيه

وابعدى عنه كل شيء
واحذرى أن يعلم بأمره
كائن من كان ·
وضعى نصب عينيك
الا يشرب منه انسان
واحرصى أشد الحرص
عندما يجمع الحب
ايزولد ومارك
على أن تقدمى اليهما هذا الشراب
كما يقدم النبيذ ليشرباه معا ·
واحذرى أن يشرب منه غيرهما
كائن من كان
ولا تشربى أنت نفسك منه
هذا شيء هام لا تغفلى عنه
ان هذا الشراب شراب الحب ·
وهأنا ذى أعهد اليك بايزولد
وفى وجدانى احساس بالقلق
يدفعنى الى الالحاح ·
واعلمى ان حياتى معلقة بها
وهكذا فنحن كلانا ، أنا وهى ،
بين يدى اخلاصك ·
وكفانى ما قلت لك · · »

فتكلمت بريجين :
« سيدتى الغالية
لقد صحت عزيمتك وقر رأيك
على أن أصحبها فى رحلتها
فأنا أوافق عن طيب خاطر
وسأقوم على شئون عزها ومجدها

وعلى كل الأمور التى تتصل بها
خير قيام ٠ »

ورحلوا عن فايزيفورت
واستأذن تريستان
ورجاله جميعا فى السفر
فرحين مسرورين ٠
وتبع الركب
أوداع ايزولد الحبيبة
الملك والملكة
والحاشية كلها ٠
وخطت الى جوار تريستان
حبيبة المستقبل
ومحنة المستقبل
ايزولد الحلوة الجميلة
تسير الى جواره باكية ٠
واتخذت النساء بناء على أمر من تريستان
قمرة فى السفينة
ينفردن فيها بأنفسهن
ويجدن فيها الراحة ٠
فيها أقامت الملكة ومعها وصيفاتها
ولم يكن رجل يدخل اليهن الا فيما ندر
الا تريستان من حين الى حين
كان يذهب الى هناك
ويواسى الملكة
التى كانت لا تكف عن البكاء ٠
ولقد كانت تبكى وتنتحب
لأنها برحت وطنها
الذى تعرف فيه الناس
وخلفت وراء ظهرها كل الأصدقاء

وسافرت مع أناس لا تعرفهم
دون أن تعلم الى أين ولا كيف ٠
كان تريستان يواسيها
بأحلى ما يستطيع
وكلما وجدها حزينة
أتى اليها
وأحاطها في رقة وعذوبة
بذراعيه
كان يعانقها
عناق التابع المخلص لمولاته
فقد ظن الرجل الأمين
أنه يحسن صنعا
عندما يخفف ما بالحسناء
من حزن ثقيل على قلبها ٠
ولكنه كلما أتى الى ايزولد
وأحاطها بذراعيه
فكرت في موت خالها
فصدت عنه وقالت له :
« كف عن هذا يا ريس السفينة
ابعد ذراعيك عني
فأنت رجل سخيف صفيق :
لماذا تلمسني ؟ »
ـ ايتها الحسناء هل فعلت ما لا ينبغي لي فعله ؟
ـ نعم ، فأنا أكرهك ٠
ـ لماذا يا مولاتي الجليلة ؟
ـ لأنك قتلت خالي ؟
ـ لكنني كفرت عن فعلتي
ـ ومع ذلك فأنا أكرهك
فلولاك ما عانيت من هذه الحيرة
ولا تحملت بما لاطاقة لي به ٠ »

شراب الحب :

وسارت السفن
سارت فى طريقها مطمئنة
وجرت بها ريح طيبة
ولكن جماعة النساء
ايزولد وصاحباتها
لم تكن معتادة
على الماء والريح
واذا أصابتهن وعكة
بعد وقت قصير .
فأمر تريستان وهو قائد الركب
بأن تتجه السفن الى البر
حتى يستريح من يريد الراحة
فلما وصلوا الى الساحل
نزل أغلب الركاب
ومشوا للنزهة
كذلك نزل تريستان من فوره
حتى يسلم على المرأة الحسناء
ويتكلم معها
فلما جلس اليها
وتحدثا فى هذا وذاك
من أمورهما
عطش فطلب شرابا
ولم يكن قرب الملكة
من وصيفاتها سوى بنات صغيرات
قالت احداهن : انظروا هذا نبيذ
فى الزجاجة الصغيرة

لا . لم يكن بالزجاجة نبيذ
وان ظهر على هيئته ..
كان بالزجاجة ألم ثقيل دائم
ومحنة للقلوب لا تنتهى الى نهاية
الى أن يموت الاثنان من أثرها
ولكنهما لم يكونا يعلمان ..
وقامت البنت من فورها
الى حيث كانت الزجاجة
فى الحفظ والصون
وقدمت الزجاجة الى تريستان قائد الركب
فقدمها أولا الى ايزولد
وشربت ايزولد مترددة وعن غير رغبة
ثم قدمت الزجاجة الى تريستان فشرب
وكان الاثنان يظنان انهما يشربان نبيذا .
وما لبثت برنجين أن أتت
فعرفت الزجاجة
وفهمت ماحدث
ففزعت فزعا أليما
حتى خارت قواها
وبدت كمن فارق الحياة
وسارت بقلب كقلوب الموتى
فأمسكت الزجاجة المشئومة
وألقت بها فى البحر المضطرب العارم
وصاحت : « ويلاه ، ما أتعسنى ، ويلاه
ليتنى لم أولد ، ولم أر الدنيا .
لقد فقدت ، أنا المسكينة ،
الشرف والاخلاص !
الى الله أرفع ندمى !
ليتنى لم أشترك فى هذه الرحلة !
ليتنى مت قبل هذا

ولم أخرج في هذا السفر
بالأمر لمرافقة ايزولد ·
الويل لكما يا تريستان وايزولد
لقد شربتما الموت ·

فلما شرب الاثنان الرجل والمرأة
ايزولد وتريستان
الشراب ، معا ،
جاءهما كل ما في الدنيا من تعب ونصب
جاء الحب الذى لا يكف عن ملاحقة القلوب
فتسلل الى قلبيهما ·
وقبل أن يتبينا ما جرى
كان الحب قد رفع لواء الانتصار
وفرض سلطانه عليهما
وجمعهما ووحدهما
وكانا من قبل اثنين مفترقين
ومنذ ذلك الحين
تبدد الخصام بينهما
الى الأبد
وضاع الكره من قلب ايزولد
فقد طهر الحب ، صانع الوفاق ،
روحيهما جميعا
من العداوة والبغضاء
وجمعهما في الحب
حتى أصبح كل منهما أمام الآخر
صافيا كالمرآة
وأصبح لهما قلب واحد
وأصبح حزنها يؤلمه
وألمه يحزنها
واتحدا كلاهما

فى الحب والحزن
ولكنهما أخفيا ما بهما
بدافع من الشك والحياء
كانت هى تستحي
وكذلك هو كان يستحى مثلها
وكانت هى تشك فيه
وكذلك هو كان يشك فيها
واذا كانت رغبة قلبيهما
قد سارت عمياء فى نفس الاتجاه
فان البداية صعبت عليهما
وكان الدافع ثقيلا
فتوارت لذلك رغبتهما . واستترت

فلما أحس تريستان بالحب
فكر من فوره
فى الاخلاص والشرف
وأراد أن يقاوم
وقال فى نفسه : لا
لا ، يا تريستان ، عد الى صوابك
ولا تسلك هذا السبيل .
ولكنه لم يستطع أن يمنع قلبه
الذى يندفع من تلقائه
فيريد على عكس ارادته
ويرغب على عكس رغبته
كان يريد وكان فى الوقت نفسه لا يريد .
كان الرجل الذى وقع فى الشباك
يحاول ما وسعته الحيلة
أن يخرج من ربقتها
فثابر وجاهد مخلصا .
كان يجابه محنتين

كلما نظر فى عينيها :
تجرح الحب الحلو يملك
قلبه وحسه ..
وكان يفكر فى الشرف
لينجو بنفسه ..
ولكن سرعان ما يعود الحب
صاحب السلطان القديم
فيخضعه لطاعته
كان يعانى العذاب
من وطأة الاخلاص والشرف
وكان يعانى عذابا أكبر
من الحب ..
كان الحب يؤلمه أكثر من الألم
ويجرحه
أكثر من الاخلاص والشرف معا .
كان قلبه يختال ضاحكا
ويأسر عينيه .
أما اذا لم ينظر اليها
فان عذابه كان يزيد الى أقصى مداه .
وكثيرا ما كان يفكر
كما يفعل الأسير
فى سبيل للخلاص
فيقول فى نفسه المرة تلو المرة :
تلهى عنها
وحول شغفك وحبك
الى اتجاه آخر .
ولكنه يظل أسير الشباك
ويعجز قلبه وحسه عن الخلاص
حتى لم يعد فيهما شىء
الا ايزولد والحب .

وجرى على ايزولد ما جرى عليه
فقد حاولت جاهدة وسعت ،
ولم تكن راضية على هذه الحياة وهذا السبيل ·
فلما تبينت لصاق الحب العنيف
ورأت أن حسها قد غرق فيه
حاولت الخلاص والنجاة
ولكنها كانت قد التصقت تماما
وكان اللصاق يشدها اليه من كل ناحية ·
ولكم تملصت الحسناء
ولكن كل حركة كانت تزيدها التصاقا ·
وأصبح عليها أن تنصاع
أرادت أو لم ترد ·
لقد جربت كل الوسائل
برجليها ويديها
وتاهبت للنجاة والفرار
فاذا هى تغوص الى بعيد
بيديها ورجليها
فى الحلاوة العمياء :
حلاوة الرجل والحب ·
لم تكن حواسها المأسورة
تجد لها سبيلا آخر
الى جسور أو مسالك
تخطو فيها نصف خطوة
دون أن يكون الحب قابعا فيها ·
ولقد فكرت ايزولد فى سرها ونجواها
وسارت بأفكارها فى كل اتجاه
فلم تكن تلقى
الا الحب وتريستان ····
وهكذا أسلمت بغير انتصار
الى الرجل والى الحب
حيانها وحواسها ·····

كذلك هو استسلم شيئا فشيئا
لما كان الحب يدفعه اليه .
وهكذا أصبح الرجل والمرأة
ينظران بعضهما الى بعض
كلما سنحت لهما فرصة
نظرة الاستحسان والمتعة
ووجد كل حبيب حبيبه
أكثر جمالا
وهذه هى أحكام الحب
وهذه هى حال المحبين
فى هذا الزمان وفيما مضى
وفيما سيأتى من زمان طالما بقى الحب
كلما نظر الحبيب الى حبيبه
وجده زاد جمالا
طالما نما الحب
وتفتحت أزهاره
وأينعت ثماره

كهف الحب :

وكان تريستان يعرف منذ وقت طويل
هناك فى جبل منعزل بعيد
كهفا كان قد عثر عليه
ذات يوم بطريق المصادفة
عندما كان يصيد
فحملته رجلاه اليه .
كان هذا الكهف فيما مضى من الزمان
قبل عصور المسيحية
وقبل حكم كورينيوس
قد احتفر فى الجبل المهجور
عندما كان العماليق هم الحكام .
اتخذه العماليق آنذاك

مكانا أمينا لأسرارهم
عندما كانوا يمارسون شعائر الحب ٠
وكانوا اذا وجدوا كهفا كهذا الكهف
وضعوا عليه بابا معدنيا ثقيلا
وكرسوه للحب
وجعلوه كهف المحبين
وأسموه كهف العاشقين ٠
ولقد كان الاسم جديرا بالمسمى
فالقصة الأصلية تحكى
أن الكهف كان رحبة مستديرة
فسيحة الأركان عالية
بيضاء ناصعة بلون الثلوج
ناعمة غاية النعومة
صقيلة الملمس كاملة الاستواء ٠
وكان فوقها قبة ممدوة
تحتويها كالسد المتين ٠
ويتوسطها في موضع السرة
تاج جميل خارق للمألوف
تزينه الجواهر الثمينة
وتوشيه الأحجار النفيسة ٠
أما أرض الكهف فكانت
من بلاط صقيل نقى ثمين
من الرخام الأخضر
كأنه كلأ سندسي نضير ٠
وفي وسط الكهف مد سرير
منحوت من البللور
الشفيف العجيب
عال ، طويل ، عريض ،
حوله كتابات توشيه
معناه أنه مكرس لربة الحب ٠
واتخذت في أعلى الكهف
نوافذ صغيرة
يسقط النور من خلالها

فيضيء كل الأرجاء ·
وعلى مدخل الكهف ومخرجه
وفى الساحة الممتدة أمام الباب
باب من نحاس صفيق ·
وفى الساحة الممتدة أمام الباب
ثلاث من أشجار الزيزفون
كثيفة الأغصان والأوراق ·
وامتلأ المكان الى الوادى وقاعه
بأشجار كثيرة وارفة
تلقى بفروعها وأغصانها الظلال ·
واكتنفته هضبة ذات ينبوع
ينساب منه جدول رقراق
رطب المياه
تتلألأ صفحته بالنور
نور كنور الشمس وضاح الضياء ·
ومن حوله ثلاث أشجار
من الزيزفون الجميل البديع
تلقى على النبع الظلال
وتحميه من المطر
ومن حر الشمس على السواء ·
وتبارت الزهور البديعة
والكلأ الأخضر النضير
وكأنها فوق الهضبة كالكساء
لأيها تكون الغلبة فى مباراة لطيفة
لخضرة الكلأ أو روعة الأزهار ·
وكانت الأطيار تشنف الاسماع
بشدوها العذب البديع
كانت الأذن تلقى هناك والعين
متعة وبهجة
فالعين يسعدها المنظر الخلاب
والاذن تسعدها حلاوة الأنغام ·
كان هناك الظل والشمس

والنسيم الرقيق والهواء العليل ·
وكان الجبل وكهفه البديع بعيدا عن العمار
يسير النشيط يوما فلا يرى سوى الصخور
فلا حقول من حوله ، بل أدغال كثيفة
وصحراء صماء ·
ولا مسالك ولا دروب
بل أرض جرداء
الا أن وعورة الناحية العسيرة
لم ترد تريستان والحبيبة
عن الذهاب الى هناك
والاقامة فى بطن الجبل ·

هرتمن فون أوى

معلوماتنا عن هـذا الشاعر محدودة . فنحن نعرف من مطـالعة مؤلفاته ان اسمه هارتمن وأنه من منطقة شفاين ، جنوب غرب ألمانيا . فقد كان من عادته أن يذكر اسمه فى مؤلفاته ويرجو القراء أن يدعوا الله له أن يغفر له ويجزيه خير الجـزاء . ويمكننا أن نستنتج من اشـارات المعاصرين له أنه كان على قيد الحياة فى العقد الأول من القرن الثالث عشر ، وأنه كان اذ ذاك شاعرا مرموقا . ومن الجائز أنه عاش فى الفترة بين العقد السابع من القرن الثانى عشر ومطلع العقد الثانى عشر من القرن الثالث عشر (من ١١٦٨ الى ١٢١٠ مثلا) . ومن المؤكد أنه لم يكن من طبقة الفرسان العريقة . بل من طبقة المحررين أو الفرسان الجدد . وأنه كان رجلا واسع العلم ، يعرف الثقافة الفرنسية وشيئا من الثقافة اللاتينية . وتدل الشواهد على أنه شارك فى احدى الحروب الصليبية وأنه عرف شيئا من ثقافة الشرق ، ولعله عرف صلاح الدين الأيوبى الذى يتحدث عنه فى احدى قصائده حديثا فيه الكثير من التقدير .

وقد وصلت الينا القصص الشعرية العظيمـة التى كتبها هرتمن وهى :

- ايريك
- جريجوريوس
- هاينريش المسكين
- ايفـــاين

وهى أعمال تعبر تعبيرا واضحا عن ثقافة عصر الفرسانية . وقد اعتمد على عادة شعراء ذلك العصر على ما كان يسمى بـ « الكتاب » أى المصدر المكتوب . ورجع الى أعمال الشاعر الفرنسى الوسيطى المشهور كرتيان دى طروا وعارضها وطبعها بطابعه . وهكذا نلتقى فى قصتين من قصصه بعالم فرسان المائدة المستديرة . كذلك رجع هارتمن الى شيء من التراث الدينى واستمد منه القصتين الأخريين .

ايريك

كتب هرتمن هذه القصـــة الشعرية بين عــام ١١٨٠ و١١٨٥ ، واستخدم فيها قصة كرتيان دى طروا الشعرية التى كتبها قبـل ذلك بنحو عشرين سنة والتى تضرب بجذورها الى أسطورة الملك أرتوس أو آرتور الذى قيل انه كان يجمع على مائدته المستديرة خيرة الفرسان فيحكى كل واحد منهم على رجال البلاط ونسائه الجميلات قصص مغامراته التى تقوم على البطولة والشهامة والحب ٠

ويجسم القصاص الألمانى فى هذه القصة فضيلة الاعتدال الفرنسانية والاعتدال هنا هو الوسط بين الفتوة والحب ، فما ينبغى للفارس أن يميل الى أيهما كل الميل على حساب الآخر ٠ وهو اذا فعل اضطربت الموازين ، ونشأ التوتر ، وتفرعت الأحداث وتشعبت الى أن يعود الفارس الى الصواب ، ويعرف الاعتدال ويمارسه ، فيستقيم الميزان ويحق له أن يدخل من جديد فى زمرة فرسان أرتوس ٠

وبطل القصـــة هو ايريك . فارس مغوار من فرســان المائدة المستديرة ، مكنته مغـامرات الفتـوة من الوصـول الى قلب الحسناء « انيته » ، ابنة واحد من الأشراف رقيقى الحال ، فتزوجها ٠ وانعقـد لايريك لواء الحكم فى أرضه . وانتظر الناس منه أن يظهر كفاءته ومقدرته وشجاعته ، وأن يكون فيهم الفـارس الحاكم القوى الشجاع العادل ٠ ولكنه خيب ظنونهم وجعل حياته للحب فقط ٠ وسرعان ما فقد سمعته كفارس عظيم وهى خسارة تساوى فقدان مبررات الوجود ٠ وتبينت الحسناء انيته بما أوتيت من بصيرة مدى الكارثة التى توشك أن تحيق بزوجها ، فاستجمعت شجاعتها وصارحته بالموقف ، وحثته على العودة الى الفتــوة ٠

ولكن ايريك ظن أن الدافع وراء كلامها هو فتور فى الحب أو خيانة، فأساء اليها ، واضطرها الى السير وراءه الى حيث خرج يطلب المغـامرة ، وأمرها بأن تلزم الصـــمت وكأنها واحد من العبيـــد ٠ وقد عانت المرأة الطيبة الكثير ولكنها صبرت صبرا بلا حدود ٠ حقيقة أنه أمرها بالصمت، ولكنها كثيرا ما كانت تخرج على الأمر ، كلما رأت خطرا يتهدده ، فاذا هى تحذره وتنبهه ٠ ولم يكن هو يقابل الحسنى الا بالاساءة ، فزاد فى الغلظة واتهمها فى اخلاصها ٠ ومر فى الطريق ببلاط الملك أرتوس ، ولكنه لم

يبق فيه الا ليلة واحدة . تابع فيها سيره ، وأكثر من المغامرات والمنازلات. وأنيته لا تفارقه فهى تارة تتبعه وتارة تسبقه . وحدث ذات يوم أن تفتقت جروح ايريك القديمة ، فخر على الأرض فاقد الوعى . واعتقدت انيته انه مات ، فاستبد بها اليأس وهمت بالانتحار ، وألقت بنفسها على سيف زوجها لتقطع ما بينها وبين الحياة من صلة . ولكن المحاولة لم تفلح . وتدخل الجراف أورنجلس فون ليمورس ، وهدأ روعها ، وحال بينها وبين الموت .

وطلب الجراف أورنجلس من انيته أن ترضى به زوجا . فرفضت . وآثرت الاخلاص لزوجها حتى بعد مماته . وأخذها الجراف الى قلعته عنوة. وكانت دائما تصحب معها جثة زوجها فى نعش لا تفارقه . وبدأ الجراف يعد العدة ليكره انيته على الزواج به . فبدأت الاستعدادات لدفن الجثة وأقيم حفل العرس ، وجر الجراف أورنجلس انيته الى المائدة جرا ، وضربها فشرعت تبكى وتولول . حتى وصل صوتها الى الراقد الممدد فى النعش . الذى ظنوه ميتا ، وكان فى الحقيقة غارقا فى سبات عميق ، فنهض ، وتحرك ملفوفا بالكفن بين الحاضرين ، حتى وصل الى الجراف فعاجله بضربة من سيفه ، ثم قتل رجاله جميعا الا من استطاع الفرار .

وترك ايريك وانيته القلعة فى جنح الظلام ، وسمع منها فى الطريق تفصيلات الأحداث ، وهو بين الدهشة والأسف . لقد اختبرها أصعب اختبار ، ولم يعد أمامه من سبيل الا أن يتوسل اليها أن تصفح عنه . وصفحت المرأة الكريمة عن زوجها راضية مؤكدة حبها واخلاصها وتفانيها. وأيقن ايريك من صدق النصيحة وآلى على نفسه أن يتمسك بالاعتدال وأن يجمع فى فرسانيته بين الحب والفتوة . وهكذا تنتهى القصة الشعرية التى تعد من الأبيات ١٠١٣٥ بيتا .

الحب ثم الخصام

وعود ايريك نفسه من أجل زوجه
على حياة النعمة والدعة
كان يحبها حبا شديدا
فأهمل كل أعمال الشهامة الفرسانية
من أجلها هى
وظل على الدعة لا يعمل شيئا

حتى لم يعد هناك انسان
يحس نحوه بالتكريم والاكبار ٠
وبدأ الفرسان الكبار والصغار
يتحدثون عنه بحق فى البلاط
حديث السوء والانكار ٠
وانصرف عنه
أولئك الذين كانوا من قبل يتمتعون لديه
بمباهج الفرسانية
فقد غضبوا أشد الغضب
ولم يكن هناك رجل أو امرأة
يساوره أدنى شك
فى أنه يسير الى هلاكه
بعد أن نال ما نال من الشهرة
لقد جرى عليه تحول خطير
وبعد أن كان الناس يتحدثون عنه بالخير
انقلبت الآية
فأصبحوا يتحدثون حديث العيب
حتى أولئك الذين كانوا يعرفونه
بل لقد لامته الدنيا كلها ٠
وخلا بلاطه من كل مباهج الفرسانية
وساءت سمعته الى حد الفضيحة
ولم يكن انسان من الخارج
يفكر فى الحضور للمشاركة فى حفلات الفرسانية
وأخذ المتصلون به يسخطون
وكانوا من قبل يتحدثون بالخير
ومما قالوه : « بئست الساعة
التى عرف فيها مولاتنا ٠
انها تسير به الى هلاكه » ٠

ولقد كان هذا الكلام عاليا
حتى وصل الى مسامع السيدة ٠
فلما سمعت هذا اللوم

استاءت وأحست بالندم الشديد
لانها كانت امراة طيبة كريمة
وفكرت طويلا فى وسائل مختلفة
يمكنها بها أن تدرأ هذا الغضب
الذى شاع وانتشر ·
ولم تتردد عن الاعتراف بينها وبين نفسها
بأن ما حدث كان بذنبها ·
وحملت الوزر الثقيل
كما تحمله المرأة الصادقة مع نفسها ·
ولكنها لم تكن تجرؤ على الشكوى الى ايريك صراحة
لأنها كانت تخشى أن تفقده ·

وحدث ذات مرة أن كان ايريك
كالعادة ظهر يوم
يرقد بين ذراعيها
وحلا لنور الشمس
أن يؤدى واجبه
فنفذ من الشباك الزجاجى
الى الحبيبين الاثنين
وأضفى على الحجرة
ضياء وضاحا وفيرا
أتاح لكل منهما أن يرى الآخر ·
وشرعت تفكر مليا
فى أحاديث الكيد التى نالت منها ·
وظنته استغرق فى النوم
ونعم سريعا بالراحة ·
فأطلقت الزفرات ساخنات
وحدقت فيه
وقالت : « بأبى أنت أيها الرجل المسكين
وما أتعسنى من امرأة
قدر عليها أن تسمع الكيد بأذنيها » ·
وسمع ايريك الكلام تماما ·

فلما أتمت كلامها
قال لها ايريك : « يا سيدة انيته
تكلمى ، حدثينى عن أشجانك
وعن الشكوى التى تكتمينها » ·
فأنكرت ولم تفصح عن شئ ·
فقال لها ايريك دعى هذا الأمر
واعلمى علم اليقين
اننى أريد أن أعرف الحقيقة ··
وكان الأحرى بك أن تحدثينى
بحقيقة شكواك التى سمعتها
والتى تكتمينها الآن » ·
لقد خشيت أن يتهمها
بأشياء أخرى
ولذلك تكلمت بعد أن شرطت عليه
أن يعطيها وعدا وميثاقا
ألا يغضب من الكلام ·

فلما سمع منها القصة
وعرف الكلام برمته
قال لها : « كفى ! »
وأمرها فى الحال بأن تنهض
وأن تلبس ثيابا قشيبة
تلبس أحسن ثياب عندها ·
وأمر غلمانه بأن يسرجوا جواده
ويسرجوا حصان السيدة انيته كذلك
وقال انهما يريدان الخروج للنزهة
طلبا للتسلية ·
وتم ما أمر به على الفور ·
وتسلح بعدته سرا
ولبس سرباله الحديدى
تحت ثيابه دون أن يلحظ ذلك أحد ·
ووضع فوق رأسه العارى خوذته

كان حريصا أشد الحرص على الكتمان
فتوسل الى الكتمان بالحيلة .
فقال : « هذه خوذتى معيبة تحتاج للاصلاح
ومن حسن الحظ أننى لاحظت ذلك الآن
والا كنت قد ترديت الى التهلكة
اذا أنا استخدمتها بحالتها هذه .
وأنا أقول لكم ماذا ينقصها
انها بحاجة الى رباط متين » .
وهكذا لم يكن هناك انسان
يستطيع أن يستشف
حقيقة ما يجول بخاطره .
ثم أخذ من على الحائط
ترسه ورمحه
وأخذ يصيح صيحات النزال
كأنه يهم للخروج الى ألعاب الفروسية
وتأهب الفرسان والغلمان
ليمتطوا جيادهم جميعا
ويخرجوا مع سيدهم
كما تفرض قواعد الفرسانية
ولكنه أمرهم بالبقاء .
وبعث الى المطبخ على التو
يأمر الطهاة بأن يعجلوا
ليكون الطعام جاهزا
عندما يعود هو وزوجه .
عند ذاك خرج ممتطيا صهوة حصانه
وأمر زوجته
السيدة الحسناء انيته
اذا كانت تريد الابقاء على حياتها
بأن تسبقه بمسافة كما ينبغى على الخدم
ومنعها منذ تلك اللحظة
بأن تفتح فمها أو تقول كلمة واحدة
طوال الرحلة

مهما سمعت
ومهما رأت ·
ولقد خشيت التهديد
فقبلت الشرط
ووعدت بالامتثال للأمر القاسي ·

خلاص بعد طول معاناة :

وأخذ الجراف أورنجليس يفكر
ويقول فى نفسه
انه لم ير فى حياته
لا فى مكان قريب
ولا فى مكان بعيد
امرأة أجمل من انيته ·
ورأى فرسانه الرأى نفسه ·
وانصرف عنها برهة
ليجرى حديثا قصيرا مع رفاقه قائلا :
« هناك شيء واضح
يمكنكم أن ترونه
عندما تنظرون الى هذه المرأة ···
انها تتصرف تصرف المرأة النبيلة
وان لها لطلعة بهية رائعة
فتكلموا ، بماذا تنصحوننى ؟
أنتم على علم بحالى
فأنا أعزب لا امرأة لى ·
أما قلبى فيشير على
بأن أتزوجها
ويلوح لى أنها تليق تماما
لتكون سيدة بلادى ·
ولقد تبينت بسرعة من هيئتها
انها تضاهينى حسبا ونسبا ·
ولهذا فان قلبى ينصحنى
بأن أتخذها زوجة

وهأنذا أرجوكم أن توافقوا عن رضا
وألا تعترضوا كارهين
وسأظل ما حييت
شاكرا لكم ، عارفا فضلكم » .
فوافقوا جميعا على مطلبه .
وفرح الجراف بهذا الرأى
وسعى الى السيدة انيته يواسيها
ويجتهد فى مواساتها كل الاجتهاد
كما يفعل الصديق مع صديق فى محنة .
قال لها : « أيتها المرأة الرائعة
لماذا تصبين على نفسك هذا العذاب
وتأخذين نفسك بهذه القسوة الشديدة ؟
فبحق الله يا مولاتى
ومن أجل خاطرى
تمالكى نفسك أكثر مما فعلت
وزيدى رباطة جأشك قليلا .
ولست أخفى عليك أننى أقر
أنك تصدرين عن طبيعة النساء
وأننى لا أجد فى ذلك غضاضة
بل أشعر فى صميم قلبى
أنك تحسنين صنعا
اذ تبكين زوجك
فهذا دليل على اخلاصك .
وهأنتذى قد فعلت ما فيه الكفاية ...
وان الحزن الطويل لا يؤدى
الا الى تكدير الحيـــاة
ففكرى فى ذلك أيتها المرأة الحسناء
ولو كان البكاء والنحيب
يعيده الى الحيـــاة
لساعدناك فى البكاء والنحيب
ولحملنا معك الهم والحزن :
ولكن هذا ضرب من المحال .
واذا كنت أنا قد أحسنت الرؤية

واصبت فى التعرف والتقدير
فلم يكن زوجك من النبل والعزة
والقوة والبهـــاء
والمهابة والجلال
بحيث تحزنين عليه هذا الحزن
وتظنين المواساة من المحال ·
بل يمكنك أن تجدى عوضا عنه
ان أنت اتبعت نصيحتى ·
والرأى عندى أن الله أرسلنى اليك
فى الســاعة المواتيــة
لتنالى الخير الكثير ·
وربما ظن الانسان
أن ضرا كبيرا أصابه
واذا الضر يتبدل
ويتحول الى نعمة عظيمة
تفوق يا مولاتى ما كان الانسان يتصور
وهذه هى حالك :
سيتحول بؤسك الى عزة
وستخرجين من فقرك
الى الغنى العريض ·
أنا هنا الجراف
وصاحب الأمر والنهى فى بلد غنى عظيم
ستكونين سيدة عليه ·
وهكذا ترين
أن موت زوجك الذى أحزنك
قد تحول الى خير كثير فى صالحك
فقد أتاك السعد والحظ
اذ اننى أعزب لا زوجة لى
وأريد أن أتزوجك ···· »
ولم تستطع المرأة الطيبة
لفرط حزنها
وشدة آلام قلبها
أن ترد عليه من فورها ·

ثم حدثته بما يجيش فى صدرها :

« دع هذا الكلام يا سيدى
يا سيدى لا تصب سخريتك
بحق الله على امرأة مسكينة ٠
أما انك قوى غنى ، فهذا شأنك ٠
وأما ما يجيش فى صدرى
فسأحدثك عنه فى كلمات قليلة :
لن يحدث على الاطلاق
أن أصبح زوجة لك
أو زوجة لكائن من كان على ظهر البسيطة
لا آجلا ولا عاجلا
الا أن يعيد الله الى زوجى ٠
لقد كان الرجل الأول فى حياتى
وسيكون كذلك الأخير ،
وصدقنى يا سيدى ، ان ذلك سيتحقق ٠ » ٠٠٠٠
ولكن الجراف منذ أن رآها
وأخذه حسنها الخلاب
لم يستطع الانتظار
حتى تدفن جثـة زوجها
وصمم على أن يتزوجها فى هذه الليلة
وأن يجعلها سيدة على بلده ٠
وعلى الرغم من أن أتباعه جميعا
وجدوا مسلكه هذا مشينا
فقد أرسل رسله
الى كل الأنحاء
ليأتوا اليه على الفور
بالرجال المأذونين بعقد القران
على سنة الله
ليزوجوه بهـا ،
فقد ظن أنه لن يستطيع العيش بدونها
وهكذا الحب له سلطانه ٠٠٠٠
وأقسمت انيته أغلظ الأيمان الا تحيد عن رأيها :
« خير لى أن توسدنى التراب

حتى أكون معه عندما تدفنوه .
ولن أكون زوجة لرجل آخر
بعد أن أخذ الله منى زوجى . » ...
وكلما رجاها وتوسل اليها
رفضت عنيدة وثبتت فى مكانها لا تتحرك .
حتى أرغمها ارغاما
وجرها رغم ارادتها
فلم تكن تقوى على مصارعته
ولم يجلسها الى المائدة بجانبه
بل أجلسها على كرسى خفيف أمامه
الى الناحية المقابلة من المائدة
حتى يستطيع النظر
الى المرأة الجميلة .
والح عليها أن تتناول الطعام
ولكنها لم تكن تستطيع أن تنسى
قرينها الحبيب
فشرعت تذرف العبرات
حتى ابتلت مما انهمر من عيونها
ناحية المائدة التى جلست اليها ...
وتكلمت الملكة الكريمة فقالت :
يا سيدى لقد تكلمت بما فيه الكفاية
ولو لم تتكلم لما تغير الأمر .
وانا لن أجيب الا بكلام قليل
الأفضل لك أن تكف عن الكلام
وانا اقسم يمينا لن احنث فيه أبدا
أن فمى لن يدخله طعام
لا يكون زوجى الميت قد أكل منه قبلى » .
وهنا كان ينبغى على الجراف
أن يتحكم فى نفسه على نحو أفضل
والا يفعل ما يتنافى مع الفضيلة
ولكن غضبه ضلله
لارتكاب حماقة ضخمة

وسلوك سبيل لا يليق بحال من الأحوال
نقد ضرب ابنته بيده
ضربة جعلت المرأة الطيبة تنزف نزيفا شديدا ٠
وصاح فيها : « ستأكلين الآن أيتها المرأة القبيحة ٠ » ٠٠٠
فقالت له وهي تقف بعيدا :
« أنا لا أعبأ بضربك لى يا سيدى
واعلم انك حتى لو قتلتنى
ولك أن تفعل بى ما تشاء ٠
فلن أصبح زوجة لك ٠
تأكد من هذا تماما » ٠
ودفعه هذا الكلام الى المزيد
وبالغ فى العنف
وعاد فضربها على فمها ضربة عنيفة ٠
فلم تفلت من الضربة
بل عرضت نفسها لها تماما
لتنال المزيد
وكان رأيها أنها بهذا تحقق ارادتها ٠
وقالت : « ما أبأسنى من امرأة !
لو كان قرينى حيـــا
لحاسبك على ما قدمت يداك » ٠

فلما شرعت تولول بصوت عال
كان ايريك ابن الملك لاك
يرقد فاقد الوعى
يظنونه قد مات
وما هو بميت ٠
ولقد نال قسطا من الراحة
ولكنه لم يكن قد تحسن كثيرا
بل ظل كالمخدر

وها هو ذا قد فزع لصياحها
وصحا كمن يصحو من منام
استغرق فيه طويلا
وانفض خارجا من النعش
فى حركة عجيبة
وبدأ ينظر بعينيه ·
ودهش لما حدث
ولم يعرف كيف أتى الى هذا المكان ·
ثم عاد فسمع مرة أخرى
صياحا كثيرا عاليا :
« ويلاه ! ويلاه ! أين أنت يا سيدى الحبيب
اننى أتلمس عونك
ولكنك للأسف ميت » ·
فلما نادته على هذا النحو
عرفها فى الحال
وفهم تماما
أنها واقعة فى محنة
لا يعلم عنها شيئا
ولا يعلم كيف حدثت ·
وقفز قفزة غضـوبة
فأصبح فى وسط القوم
ووجد على حائط قريب
سيوفا كثيرة معلقة
فتناول واحدا منها بيده
وكان غضبه عنيفا
وهجم هجمته الأولى
فضرب الجراف ومن على يمينه ومن على يساره
بينما لاذ الآخرون بالفرار ·
ولم يتبع منهم أحد آداب السلوك

فيتأخر الصغير ويتقدم الكبير عندما يقول له :
« تفضل يا سيدى ، أنت أولا » .
بل اندفع الى الخارج
من وجد طريقا للهروب
وهكذا جرت الأمور
سبق أهل الدنيا رجال الكنيسة
دون اعتبار لدرجة أو رتبة
ودون نظر لما اذا كان صغيرا أو عظيما
شماسا أو مطرانا
لقد هرب أهل البلاط
وضاقت الأبواب على سعتها
أمام الزحام الشديد ...
وكانت حفلة زفاف لا مثيل لها ولا نظير ...
وأمسك بدرعه
وتناول بيده اليسرى رمحه
وأمسك بيمناه السيدة انيته
وذهبا الى بوابة الحصن
واذا به يرى من يأتيه بجواده
يسوقه اليه على غير انتظار
ولم يكن راكبه نفسه يعلم ذلك
ولا أى انسان غيره
وانما هو الحظ السعيد
الذى تجلى فى تلك اللحظة ....
فلما بلغا الغـــابة
وتخففا مما أرهقهما من نصب
وجدا طريقهما الذى عرفاه
وسأل الملك ايريك
السيدة انيته أن تحكى له المزيد

كيف وقعت فى قبضة الجراف
الذى دق عنقه منذ قليل
كما حكيت لكم
فقصت عليه القصة
وعيناها تتألمان
فقد انهمرت منها الدموع مدرارا
وسرعان ما انتهت المعاناة
المعاناة الصعبة
والآلام العجيبة
التى سببها لها حتى ذلك اليوم
وكان قد لجأ الى هذه الحيلة الذكية
منذ أن خرجا من دارهما
ليختبرها ويتبين
ما اذا كانت امرأة كريمة المعدن
وها هو ذا قد اطمأن كل الاطمئنان
وما أشبه ما حدث بما يحدث للذهب
عندما يدخل النار ليصفو ويزداد نقاء
وهكذا أصبح يعرف يقينا
أنها قائمة على الاخلاص والثبات
وأنها امرأة طاهرة الذيل
لا تشوبها شائبة
فضمها الى صدره
وقبلها قبلات حب حارة
وتوسل اليها أن تغفر له
ما أضناها به من جفوة
وخشونة وتعب ...
فغفرت له .....

جريجوريوس

أخذ هرتمن موضوع هذه القصة التي تزيد أبياتها على أربعة آلاف بيت عن اصل فرنسي اسمه «حياة البابا جريجوار» يصور محنةوخلاص آثم بريء تطهر حتى بلغ كرسي البابوية . ويمكن القول ان هرتمن فرغ من هذه القصة ذات المضمون الديني حول عام ١١٩٠ . وتبدأ بالحديث عن أمير من امراء اكيتانيا ماتت زوجه ، مخلفة ابنا وبنتا ؛ ثم مات هو أيضا وتركهما وحيدين . فجمع الحب بينهما . نقيـا في أول الأمر ثم بشعا بعد ذلك . وتحدث الامير الى صديق له عن هذه المحنة الاليمة ؛ فنصحه بأن يبرح الارض ، ويسعى الى الغفران بعيدا عن اعين الناس . وضم الصديق الأميرة الآثمة اليه حتى وضعت حملها في السر . وفكرت الأم في أن تقتل الوليد وتتخلص منه الى الأبد . ولكنها غيرت فكرها . وآثرت الا تضم الى الاثم الفظيع اثما افظع ، وانتهى رايها الى لفه في ثياب من الحرير ، ووضعه في صندوق القته في مركب فدفعته الأمواج الى شاطىء بعيد . ووضعت الأم مع الوليد بعض المال ، ولوحة صغيرة تشير الى رفعة حسبه ، والى أن أباه هو خاله وأمه وعمته . وبقيت في بلادها حيث تولت الامارة .

ووجد بعض الصيادين السفينة والصندوق والطفل فحملوا الطفل الى الدير المجاور ، فدفع رئيس الدير بالطفل الى أسرة خيرة . فقامت على شأنه حتى كبر ، فعمدوه واسموه «جريجوريوس» . ولما بلغ السادسة ضمه رئيس الدير اليه ، واهتم بتربيته اهتماما خاصا ، وألحقه بمدرسة الدير . وذات يوم اتى جريجوريوس الى الرئيس وشكا له من شاب في المدرسة عيره بأنه لقيط ، وسأله عن حقيقة الامر ، فصارحه بما يعلم .. وقرر جريجوريوس أن يضرب في الارض بحثا عن وطنه وأهله .

واتخذ هيئة الفرسان ، وتعلم فنونهم ، وعاش حياتهم يتنقل من مغامرة الى مغامرة ، ويكتسب مزيدا من القوة والمهارة والشجاعة حتى ساقته الرياح الى بلاد أمه ، دون أن يعلم أنها هي . ووجدها في محنة عظيمة ، قد حاصرها العدو ، وضيق الخناق على أهلها ، وسامهم سوء العذاب . وكانت الأميرة قد أعلنت أنها ستتزوج بمن يحـرر بلادها ، ويغلب الغاصب . وتدخل جريجوريوس بما أوتي من بأس وبسالة ، فانتصر ، وتزوج الأميرة دون أن يعلم أنها أمه ، ودون أن تعلم هي انه

ابنها · حتى جاء اليوم الذى اكتشفت فيه اللوحة الصغير فعرفت الحقيقة الأليمة ·

واندفع جريجوريوس الى الدنيا الواسعة ، هائما على وجهه ، ساعيا الى الله ، باحثا عن المغفرة · حتى وجد صخرة فى وسط البحر المتلاطمة أمواجه فاتخذ لنفسه فوقها صومعة ، وعاش حياة خشنة كل الخشونة ، حياة العابد التائب النادم · فأفاء الله على جريجوريوس من منته ، وقربه اليه · ومرت أعوام كثيرة · وحدث أن مات البـــــابا فى روما ، واختلف الكرادلة فيما يختارونه خليفة له ، حتى أوحى الله اليهم أن يأتوا بالعابد المتنسك من فوق الصخر ، فينصبوه رئيسا للمســــيحية · فلما ذهب الرسل اليه ، تردد ، ثم قبل ، وذهب الى روما فى موكب مهيب ، حيث لقى استقبالا يصل الى حد الاعجاز · وأحسن جريجوريوس القيام على البابوية ، وذاعت شهرته فى البلاد من أقصاها الى أقصاها ، فكان المرضى يسعون اليه ليشفيهم ، والمذنبون لكى يغفر لهم · وهكذا أتت اليه أمه ، وهى لا تعلم أنه ابنها ، طالبة الصفح · وعرفها وعرفته ، واجتمع شملهما فى صفاء وقدسية ، وأفاء الله عليهما من رحمته ومنته ·

من المعاناة والاستغفار الى كرسى البابوية :

وكان هناك درب ضيق
يسير بجانب البحيرة ويصل الى الوادى
فسلكه الرجل الذى ثقلت عليه حياته
وظل يسير فيه

حتى رأى بيتا صغيرا
فاتجه نحوه طلبا للراحة ·
كان هذا البيت بيت سماك
وجد على مقربة منه مكانا للصيد
فيه سمك وفير ·
فتوسل الناسك اليه
بحق الله أن يأويه ·
ولكنه لقى على يديه
من الاستهزاء والتحقير أكثر مما لقى من قبل ·
فقد نظر السماك الى جسمه القوى
وهز رأسه عجبا

ثم قال له :
« أيها الرجل الدجال المخادع .
لعلك ظننت
أننى بلغت من الحمق درجة
آوى فيها رجلا نهما اكولا
وآخذك عندى أيها الفلاح القوى
مخدوعا بكلامك المعسول
حتى اذا غلبنى وامرأتى النعاس
اختطفت حياتنا
وسرقت أشياءنا
والدنيا كلها تخطىء
عندما تقبل بينها
مثل هذه السفاهة
أو تسكت على رجل تافه مثلك
لا يتقى الله
ولا يكف عن نهب الناس ،
والأفضل لساعديك المفتولتين
أن يعملا فى حقل بكر
والأفضل ليدك أن تمسك
الفأس للفلاحة والعصا لحث البهائم
بدلا من التشرد !
وليس هناك من استخدام أفضل للخبز
من تقديمه لانسان نهم أكول !
أعوذ بالله منك ومن الشياطين أمثالك .
ان ما تفعله عار عليك وعلى قوتك .
فاخرج من البيت من فورك » .

كان الوقت متأخرا
ولكن الآثم المستغفر
تلقى الكلام القاسى
بنفس راضية ضاحكة .
وأجاب اجابة الانسان الطيب فقال :
« لقد قلت الحقيقة يا سيدى .
من الكياسة أن يحرص الانسان

على أمنه في بيته . »
وتمنى له ليلة سعيدة
وانصرف مستبشرا الى حال سبيله .
وكان الرجل الهائم على وجهه
يسمع بنفس راضية
عبارات التوبيخ والاهانة
ومهما قست العقوبة
على المعاناة التي يلقاها
واشتدت آلام الاهانة
التي تعرض لها بدنه
فانه كان راضيا بها
ولو أن ذلك العبد
قد انهال غاضبا بالضرب
على ظهره فأوسعه
فانه كان ينوى الاحتمال صابرا
حتى يتخفف
من ذنوبه الثقيلة .
أما امرأة السماك القاسي
فقد أشفقت عليه .
وكان الرأى عندها
ان هذا الرجل ليس محتالا
بل لقد اغرورقت عيناها بالدموع
للتوبيخ العنيف
الذى رد به زوجها على توسل المسكين .
وقالت : « من المؤكد
انه رجل طيب
هذا شيء يراه من ينظر اليه .
عسى الله ألا يعاقبك
فانك بسوء كلامك وتوبيخك
عرضت خلاص روحك للخطر .

وأنت تعلم أن بيتك
بعيد عن الناس والعمران
واذا كان الله ربنا
قد نبهك الى رحمته
وأرسل اليك رسولا
فما كان يليق بك الا أن تحسن استقباله
وعليك أن تفكر وتتأمل
فمنذ أن استقر بنا المقام هنا
لم يأت الينا محتاج
وهذا هو أول مسكين
يأتي فترده خائبا .
والانسان الذى يعيش مثلك
يوما بعد يوم على الصيد
ولا يعلم هل يعطيه الله أو يحرمه
ينبغى أن يضع الله نصب عينيه :
فاسمع نصيحتى
وأصلح ما فعلته
ودعنى أنادى عليه ليعود .
فهو على سفر شاق
ومهما أسرع الخطى
فسيحل به الليل فى الغابة .
وقد تفترسه الذئاب
وهذا شىء كثيرا ما يحدث
ولو لم تفترسه فسيظل جائعا
لا يجد شيئا يسد به رمقه .
فاسمح لى
بأن آويه . »
وهكذا خففت المرأة بطيبتها
شراسة نفس زوجها السماك
فرضى بأن تذهب فى الحال
وتلحق بالرجل الشريد
وتدعوه أن يعود .

فلما عادت به
أعدت لزوجها السماك
طعام العشاء ·
وأرادت المرأة الطيبة
ان تخفف الغلظة الشديدة
التى عاناها المحتاج الشريف
بلا سبب على يد زوجها
فبدأت تقدم اليه
الأطعمة الجيدة ·
ولكن الرجل المتنسك رفض
على الرغم من الحاحها الشديد
ولم يتناول الا كسرة من الخبز الردئ
وشربة ماء من النبع
وقال للمرأة
ان هذا الطعام القليل الذى أخذه
كثير عليه فهو مثقل بالذنوب ·

فلما رآه السماك
يأكل هذا الطعام الحقير
عاد يوبخه فقال :
« كم يحزننى أن أراك تأكل هكذا ·
فأتبين طريقة الاحتيال
وأساليب الغش والخداع كلها ·
فأنت لم تأت الى هنا
لتأكل هذ االطعام البسيط ·
ولا يبدو على وجهك
أنك تعانى من جوع أو عطش
فوجنتاك البيضاوان متوردتان
ولم يحدث من قبل
أن بلغ رجل أو امرأة
هذه الصحة والقوة
من الخبز والماء فقط ··
فهذا شعرك ناعم لا تشوبه شائبة

وهذا جسمك يشبه جسم كل نهم أكول
وذراعاك ويداك
لا عيب فيها ولا اعوجاج
بل هي مستوية وبيضاء
فأنت تعتني بها
في مأواك الخفي
على نحو آخر غير الذي تصطنعه هنا .
وأنا متأكد تماما
من أنك ستعود في الغد
الى حياة الدعة والنعمة .
وستستطيع بمالك
أن تتخذ بدون جهد أو مشقة
سكنا ناعما
ينسى فيه فمك
طعم العيش الردىء
والماء العادي . »
وتلقى الرجل الطيب هذا الكلام
بنفس راضية
يسعده من أجل الله
أن يعاني الهوان والاحتقار
على يد انسان حقير .
ولم يرد بشيء
وسكت حتى أتى الوقت
الذي شرع الرجل يسأله
عن قصته وأحواله .
فقال : « ياسيدي
أنا رجل لا أعرف سبيلا
لاحصاء ذنوبي الكثيرة أو عدها
ولهذا خرجت أسعى الى منة الله
وأبحث عن مكان في الصحراء الجرداء
أكفر فيه عن خطاياي حتى الموت
بتعذيب جسدي .

واليوم هو اليوم الثالث
الذى أدرت فيه ظهرى للدنيا
وخرجت أضرب فى البرية
ولم أكن أتوقع أن أرى هنا
بشرا او مساكن
حتى ساقتنى الطريق اليوم اليكما
فأنا ألتمس النصح والتوجيه
هل تعرف لى فى مكان قريب
ملاذا توصينى به :
صخرة صماء أو مغارة
تدلنى عليها ، فتكون قد صنعت بى جميلا » .

وأجاب عليه السماك قائلا :
« اذا كان هذا هو مطلبك يا صديقى
فلك أن تطيب نفسا
فسأدلك على مكان يرضيك
اننى أعرف هنا عندنا
صخرة صغيرة فى الناحية الأخرى من البحيرة
أرى انها ستكون مناسبة لك
وسأعينك بجهدى
على الوصول اليها
وستقضى فيها أياما شاقة
تتخفف فيها بالشكوى من همك وغمك .
الوحشة هناك كافية
فاذا صحت نيتك
على التكفير والندم
فأنا أنصحك نصيحة
عندى هنا حلقة من الحديد
احتفظ بها منذ وقت طويل
ساعطيك اياها
لتثبت بها حياتك
فوق الصخرة ،
ضعها حول ساقك واغلقها

حتى اذا لنت وتراجعت
اضطرتك الى البقاء
رغم أنفك فوق الصخرة ...
« وهكذا أخذه فى القارب معه
الى الصخرة الصماء
وثبت رجليه بالأغلال
وأغلق القفل بالمفتاح
وقال له : «ستبقى هنا حتى الهرم .
ولن تستطيع النزول أبدا
اللهم الا اذا جاءك الشيطان
وخلصك بما أوتى من خبث وحيلة . »
وألقى بالمفتاح فى البحيرة
وقال : « وأنا أعلم علم اليقين
اننى اذا حصلت على المفتاح مرة أخرى
من المياة المتلاطمة العميقة
ستكون عند ذاك بريئا من خطاياك
وستكون قديسا » .

ثم تركه وانصرف .
وبقى جريجوريوس المسكين
على هذا النحو
فوق الصخرة الصماء
وحيدا بلا عون أو مساعدة .
فلم يتخذ مسكنا
بل كانت السماء هى السقف الوحيد فوقه
لم يكن يقيه البرد والصقيع
والثلج والريح والمطر
شىء سوى رحمة الله .
ولم يكن يلبس من الثياب
الا قميصا من الصوف الخشن
لا يستر ذراعيه ولا ساقيه .
أما الطعام الذى كان معه
فلم يكن يعينه على الموت

الا اسبوعين على أكثر تقدير
لو لم يكن روح الرب المعزى
قد حدد لحياته ومماته موعدا
ومنع الجوع من أن يفتك به
وأنقذه من قبضته ·
وهذا حديث صدق أسوقه اليكم ···
وقد يظن البعض أننى أبالغ
اذا أقول انه عاش هناك هكذا سبع عشرة سنة
لكن الله يفعل ما يشاء
ليس عنده مستحيل
وهو الذى يفعل المعجزات
فلما أمضى الرجل المتنسك
بغير عون أو سند
سبعة عشر عاما
على الصخرة الصماء
حتى عفا الله
عن ذنوبه وخطاياه
وأفاء عليه من منته
وحدث اذ ذاك ، على نحو ما قرات ؛
أن مات البابا فى روما ·
وأراد كل واحد من أصحاب الأمر
فى تلك المدينة
أن يخص أسرته
من أجل النفع والثروة
بهذا المنصب الرفيع ·
وتنازعوا أمرهم بينهم
واختلفوا وحال الطمع والحرص
والتشرف بالمنصب الجليل
بينهم وبين اتخاذ قرار
فيمن يختارونه للكرسى البابوى ·
واخيرا قر رأيهم جميعا
على أن يتركوا الاختيار

لله ربنـــا
ليبين بفضله ومنته
أصلح انسان لهذا المنصب .
وقر عزمهم على أن يقيموا صلاة
وأن يوزعوا الصدقات
ويكثروا من الدعاء .
واستجاب الله لهم
وهو العزيز ذو المنة
وكشف لاثنين من أهل روما الأتقياء
ذات ليلة ارادته
وكانا رجلين مصدوقين
عرف عنهما الصدق والأمانة
وكان لكلمتيهما وزن العهد والميثاق .

فبينما كانا ، كل فى مضجعه
غارقا فى صلواته
قال لهم صوت الرب
أن عليهم أن يقوموا فى اليوم التالى
بجمع أهل روما جميعا
واعلانهم بارادة الله
فى أمر البابا الذى اختاره .
انه رجل يقيم
على صخرة صماء
فى منطقة اكيتانيا
(التى لا يمكن أحد هناك يعرفها)
منذ سبع عشرة سنة .
هذا الرجل الذى يسمى جريجوريوس
هو أصلح الناس جميعا
لكرسى البابوية ...
وصدق أهل روما
هذه القصة راضين شاكرين لله
وأرسلوا الرجلين المسنين
رسولين منهم

الى بلاد أكيتانيا
ليبحثا عن الرجل الصالح
يأتيا به معهما ...
وشرعا يسيران
حتى رأيا جبلا
وسارا في برية وحشة حتى بحيرة
يؤرقهما الشك
فما كانا يعرفان
أين سيجداه ...
وفرحا فرحا شديدا
عندما وجدا دربا
لا ترتسم فيه آثار حوافر دابة
وسارا على هذا الدرب الذى غص بالحشائش
فوصلا الى لسان بعيد
هو الذى اتخذ السماك سكنه عنده
على مقربة من البحيرة
وهو الذى تحدثت عنه فيما سبق ...
فلما رأى الرجلان المسنان
البيت الصغير
عبرا عن فرحهما
بالعثور على مكان
يرتاحان فيه بالليل بعد التعب والارهاق .

وكانا على سبيل الاحتياط
قد حملا معهما طعاما
مما قد يحتاجان اليه
من النبيذ والخبز
فاستقبلهما السماك
مسرورا بغير ضيق أو تبرم
لانه رأى ما معهما من طعام
وعرف أنه سينال منه نصيبه
ولم يثقل عليه
ان يعرض عليهما مكانا مريحا

لأنه رآهما يحملان الطعام
وهكذا أحسن وفادتهما
لا كرما منه ولكن طمعا فيما معهما
استقبلهما أفضل مما استقبل الضيف
الذى جاء خالى الوفاض
جريجوريوس الرجل الصالح التقى
الذى ظن أنه لن ينال منه نفعا .

فلما أراهما المكان الجيد الذى يأويان اليه عنده
تكلم معهما وهما ضيفه :
« لقد حالفنى اليوم حظ عظيم
فقد صدت اليوم
سمكة جميلة جدا
وكأنما كان مكتوبا لى
أن أرى أناسا طيبين . »
ووضع السمكة على المائدة
أمام الرجلين
والحق أنه لم يكذب
فقد كانت السمكة طويلة عريضة
تساوى ما يطلب فيها من ثمن .
فلم يطل النقاش
ونقداه ما طلب .
وطلبا اليه فى الحال
أن يشقها وينظفها بنفسه
فلما شرع فى اعدادها
وهما ينظران اليه
وجد الرجل الشحيح
المفتاح فى بطنها
المفتاح الذى قصصت عنه من قبل
وقلت انه أغلق به الأغلال
قبل سبع عشرة سنة

الى قدمي جريجوريوس
واسرف في الغلظة والشراسة
فالقى به في البحيرة ...
وتعرفه السماك في الفور
وأيقن أنه صدر عن حمق وغباء
عندما فعل بجريجوريوس ما فعل
وشرع يشد شعره بيده ...
ويلطم صدره
فسأله الرجلان
عما دهاه وما دفعه
الى الشكوى المريرة الصادقة
التي رأياها
فشرع يقص عليهما صادقا
قصته مع ضيفه جريجوريوس
فلم ينقص منها شيئا ...
أما الرسولان فقد فرحا فرحا شديدا
لأنهما استشفا من القصة
أنها تدور حول الرجل
الذي اختاره الله لهم
ليكون البابا . »

هاينريش المسكين

من المؤكد أن هرتمن استمد هذه القصة الشعرية القصيرة - ١٥٢٠ بيتا - من مصدر ما . فهو يشير فى مقدمته الى أن قصته تعتبر ترجمة أو صياغة جديدة لقصة قديمة . ولكننا لا نعرف شيئا كثيرا مرضيا عن هذا الأصل .

وتدور القصة حول أحد الفرسان واسمه هاينريش . كان يعيش فى موطنه الشفابى جنوب غرب ألمانيا ، حياة رغدة ناعمة ، متمتعا بما أفاء الله عليه من نعم كثيرة . وسولت له نفسه أن يغرق فى المتع ، ويقبل على الدنيا ، وينصرف عن الآخرة . فأصابه الله بداء وبيل هو البرص ، كان معروفا فى العصر الوسيط أن الله يعاقب به الآثمين . ولقد جزع هاينريش أشد الجزع ، ولجأ الى مشاهير الأطباء فى مونبلييه، وفى سالرنو حيث الأطباء العرب ، ولم يجد من علاج الا ما حدثه به أحد أساتذة سالرنو . قال له ان داءه يمكن أن يشفى . ولكن العلاج يوشك أن يكون مستحيلا . فهو يحتاج الى بنت صغيرة طاهرة نقية تقرر أن تموت من أجله ، فيأخذ الطبيب شيئا من دم قلبها ، ويعالج به مواضع البرص فتشفى .

وعاد هاينريش من سالرنو الى بلده خائبا . ووزع أملاكه الخاصة على ذوى القربى والأصحاب . ولم يبق الا على عزبة صغيرة أقام فيها مع المزارع وعائلته . وكان الناس جميعا بلا استثناء تقريبا ينفرون منه لأن البرص كان علامة واضحة على غضب الله . أما بنت المزارع فكانت تكن لسيدها الحب والاحترام ، وكانت تلزمه ليلا ونهارا ، وتواسيه ما استطاعت الى ذلك سبيلا . كذلك تعلق بها هاينريش وأحبها واعتبرها عروسا له . وفيما المسكين هاينريش يتحدث مع المزارع وأسرته عن محنته . أشار الى الدواء المستحيل الذى وصفه له أستاذ سالرنو . وسمعت بنت المزارع الحديث ، وقررت أن تضحى بنفسها من أجل سيدها ، وأصرت على قرارها كل الاصرار ، ولم تفلح الجهود الكثيرة فى ردها عما عزمت عليه .

وظنت أسرة البنت أنها تتحدث بوحي من الروح القدس ، فرضخت • وانتهى الأمر بأن سافر هاينريش والبنت الى سالرنو •

وبينما وقف هاينريش بالباب . تمددت البنت على منضدة الطبيب ، وأخذ الطبيب يشحذ سكينه ليشق بهـا صدرها ، ويستخرج من قلبها ما يحتاج اليه من دم ، وهى راضـية تحثـه على أن يتعجل حتى يشفى سيدها • وفجأة استيقظ ضمير هاينريش ، وأنبه على قبول هذه التضحية الأثيمة ، وصاح فى الطبيب أن يكف ، فرفع يده عن البنت ، وعاد بهـا الى دياره • ولقد أحدثت هذه الصدمة الروحية أثرا حاسما ، فتغير ضمير هاينريش من الضد الى الضد ، وعرف السبيل الى الله ، فجزاه الله خير الجزاء . وشفاه • وتزوج هاينريش وهو الفارس سليل الحسب والنسب من الصبية بنت الفلاح بعد أن جمعهم الطريق الى الله •

وهكذا سافرت الى سالرنو
فرحة مسرورة
سافرت الى هناك البنت مع سيدها •
ولم يكن يؤرقها من شيء

الا أن الطريق الى هناك كانت طويلة
وأنها كانت تطيل حياتها رغما عنها •
فلما وصل بها هاينريش
الى حيث أراد
والتمس الطبيب الأستاذ
وأبلغه فى التو والساعة
الخبر السار

وقال له انه أحضر البنت
التى أشار عليه أن يأتى بها ،
ثم قدمها اليه •
فلم يصدق الأستاذ عينيه
وقال : « أيتها الصبية
هل صممت بارادتك على هذا
أم دفعك الى اتخاذ هذا القرار
توسل سيدك اليك أو تخويفه اياك ؟ »

فردت عليه قائلة
انها قررت ما قررت

وحى من قلبها .
فأخذه العجب الشديد
وانتحى بها جانبا ...
وقال لها : « عليك الآن
أن تراودى نفسك ، وأن تتدبرى الأمر .
وعليك أن تعرفى الحقيقة التى سأقولها لك الآن .
اذا كنت ستعرضين نفسك الآن للموت
دون حب خالص فيه
فان بدنك الغض سيفنى
ولن نفيد منه أكثر مما قد يفيدنا رغيف من الخبز .
ودعينى أشرح لك ما سأفعله به :
سأخلع عنك ملابسك ، وستقفين عارية
وستخجلين خجلا عظيما
عندما تجدين نفسك واقفة أمامى
عارية بغير ثياب .
وسأوثق ساقيك و ذراعيك
واذا كان جسمك عزيزا عليك
فتصورى الألم الذى سيصيبه
سأشق صدرك حيث يكمن القلب
وسأستخرج القلب وهو ينبض .
قولى لى الآن يا فتاتى ،
الا تزال شجاعتك كما هى .
اعلمى أن الذى سيحل بك على يدى
شىء لم يجر من قبل على طفل أو طفلة .
اننى أنا نفسى أحس بالخوف الشديد
عندما أتصور أننى سأضطر الى اجراء هذه العملية .
وهناك شىء آخر لا ينبغى ان يغيب عنك :
اذا أنت ندمت ولو مقدار شعره
فان عملى يضيع حتما
وتكون حياتك قد تبددت هباء منثورا . » ...
وتكلمت البنت وهى راضية النفس
لأنها كانت تعلم عن ايمان راسخ

ان يوم مماتها يعني خلاصها
ونجاتها من محنة الدنيا :
جزاك الله خيرا ، يا سيدى العزيز
على ما ذكرت وفصلت
وأصدقك القول انني بدأت أتردد قليلا ...
لقد بدأت أخشى على عملنا
أن يفشـــل
نتيجة لترددك أنت .
ان كلامك لا يليق بامرأة
وانك لتشارك الأرنب في أسوأ صفاته
فيأنتذا تخاف خوفا عظيما
عندما تتصور انني سأموت .
انك تسيء بهذا والله
الى أستاذيتك المهيبة .
حقيقة انني امرأة ، ولكنني قوية البأس
فاذا صح عزمك على أن تشق صدرى
فستكون لدى الجرأة على الاحتمال ..
عليك أن تجرى العملية التي تعرفها
وأن تكون رابط الجأش
فترد لسيدى صحته
وتفتح لى السبيل الى حياة الخلود .
أستحلفك بالله أن تعجل .
نعم الى عملك واتقنه لتثبت جدارتك كأستاذ عظيم
ولست أطيق الانتظار من فرط الشوق .
أما من يدفعني الى التضحية فأنا أعرفه
وأعرف أني أفعل ما أفعله باسمه .
انه الذى يقدر الجميل حق قدره
ثم يوفي صاحبه جزاءه غير ممنون .
انه هو القائل
ان من يفعل الحسنى
ينال جزاء أعظم منها
وما الموت في نظرى

الا بلا حنو
لانى أعرف الجزاء الذى سأناله
واذا أنا ضيعت التاج السماوى
فأنا غبية سفيهة
خاصة اذا كنت فى الدنيا رقيقة الحال » .
وهكذا تبين الأستاذ مما سمع
أنها مؤمنة ايمانا لا يتزعزع
فعاد بهـا
الى هاينريش المريض
وقال له : « ليس لنا أن نرتاب
فى صلاحية البنت للمهمة الشاقة .
فطب الآن نفسا :
سيزول ما بك من ضر حالا » .
ثم قادها
الى حجرته السرية الرهيبة
بعيدا عن عينى سيدها
وأقفل الباب فى وجهه
وأحكم القفل بالمزلاج
حتى لا يراها السيد
وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة .
هناك فى الحجرة
التى غصت بالكثير
من الأدوية والترياق
أمر الأستاذ الصبية
أن تخلع ثيابها فى الحال .
فاستجابت راضية
بل عجلت فمزقت ثيابها من حيث خيطت .
واذا هى تقف بغير ثياب
عارية البدن
دون أن تبدى أدنى خجل .
فلما نظر الأستاذ اليها
قال فى نفسه

ليس من المستحيل ان يجد الانسان فى الدنيا
مخلوقة أجمل من هذه ·
وثارت فيه الشفقة
حتى أوشك قلبه وعقله
أن يخذلاه ·
ورأت البنت الطيبة
منضمدة عالية هناك
أمرها بأن تطلع فوقها
ثم أوثقها فأحكم وثاقها ·
ومد يده فتناول
سكينا حادة
أعدها لمثل هذه العمليات
كانت طويلة وعريضة
ولكنها لم تكن على حدتها
تقطع على النحو الذى يرضيه ·
ولما كانت البنت منتهية الى الموت
فقد أشفق عليها
وقرر أن يخفف الموت عليها ·
وكان عنده في عدته
حجر سنان عظيم ·
فطفق يسن السكين عليه
ببطء دونه كل بطء
وعمل على شحذها على مهل
فسمع ذلك الرجل
الذى لن يلبث أن يتدخل
فيردها عما كانت قد سعدت به
انه هاينريش المسكين
الذى كان يقف بالباب
ويتألم ألما مريرا
مذ أيقن أنه لن يراها
بعد الآن على قيد الحياة ·
وطفق يبحث في الحائط وينقب

عن خرق يمكنه أن ينظر من خلاله
وجد بعض الشقوق
رآها من خلالها عارية
موثوقة الأطراف مربوطة ·
كان جسمها جميلا بديعا ·
فعاد ينظر اليها ثم ينظر الى نفسه
واذا بخاطر يخطر له :
لقد أدرك أن الفكرة التى فكرها
وسعى الى تنفيذها
ليست من الخير فى شىء
وسرعان ما غير نفسه القديمة
الى نفس جديدة مفعمة بالخير ·
لقد حدث نفسه
عندما رآها على هذا الجمال الرائع فقال :
« ما أقبح الفكرة التى فكرت فيها ·
لقد حلا لك أن تعيش
غير مستسلم لقضاء الله ·
الله الذى لا يستطيع كائن من كان
أن يخرج على أمره ·
انك فى الحقيقة لا تدرى ماذا تفعل ·
مادمت ستموت يوما لا محالة
فلابد أن تتحمل راضيا
هذه الحياة الدنيئة
التى فرضها الله عليك ·
وهل أنت على يقين حقيقة
من أن موت هذه البنت الصغيرة سيشفيك ·
عليك أن تقبل بالرضا كل الرضا
كل ما يقدره الله عليك ·
لا · لا أريد أن أرى البنت تموت » ·

وسرعان ما تحرك
فاندفع الى الحائط وأخذ يقرعه

ويطلب من الطبيب أن يدعه يدخل
ولكن الطبيب الكبير قال له :
انني مشغول هنا وليس لدى وقت
لأفتح لك الباب » .
ــ « لا . أرجوك أيها الأستاذ ، كلمنى » .
ــ « لا . يا أيها السيد . لا أستطيع أن أكلمك
فأنا مشغول ، وعليك أن تنتظر حتى أفرغ من عملى » .
ــ « لا يا أيها الأستاذ . لابد أن تكلمنى قبل ذلك » .
ــ « مادام الأمر كذلك ، فقل ما تريد ؛ وأنا أسمعك من وراء الحائط » .
ــ « لا ، لا يمكن أن أتحدث فى هذا الموضوع بالذات على هذا النحو » .
هنالك فتح له الأستاذ وأدخله .
وما ان دخل هاينريش المسكين
حتى رأى البنت موثوقة ،
فقال للطبيب الكبير :
« هذه بنت رائعة حقيقة
وأنا لا أستطيع بحال من الأحوال
السكوت والنظر اليها وهى تسير الى حتفها .
فليقض الله ما هو قاض
ولتجر على مشيئته .
ولنرفع أيدينا توا عن هذه العملية
وستنال أجرك كاملا
سأعطيك الفضة التى اتفقنا عليها
ودع البنت حية ترزق » .
وسعد طبيب سالرنو الكبير
عندما سمع هذا الكلام
ونفذه على الفور
فحل وثاق الصبية .
ولقد حزنت الصبية حزنا شديدا
عندما علمت أنها لن تموت الآن
وخرجت على قواعد السلوك
لشدة ما اعتراها من ألم :
فلطمت صدرها

وشدت شعرها
ولو رآها أى انسان مهما كان
وهى تشكو وتنتحب
لاستبد به الشجن
ولانخرط فى البكاء .
كانت تولول بمرارة وتصيح :
« ويلاه ! واحسرتاه ! كم أنا مسكينة
الام تصير حالى ؟
هل تحتم على أن أخسر التاج
التاج السماوى العظيم ؟
لقد أوشكت على أن أناله
جزاء على هذه المعاناة .
نظرة يا أيها المسيح العظيم .
ما أفدح الخسارة التى منينا بها
سيدى وأنا . ما أفدحها .
لقد خسر شيئا عظيما كان يرجوه
وضاع منى شرف عظيم كنت سأناله
لو تمت العملية
كان جسمه سيبرأ من علته
وكنت أنا سأنال الحياة الأبدية السعيدة » .
وعادت تلح فى رجاء الموت وتتوسل ..
فلما أحست أنها لن تنال مطلبها
غيرت لهجتها وانتقلت الى التوبيخ .
قالت : « هل تحتم على أن أتحمل الثمن
عندما يستبد الجبن بسيدى ؟
لقد اتضح لى الآن
أن الناس خدعونى .
لقد سمعتهم يقولون عنك دائما
انك رجل جاد صالح
رابط الجأش ، صلب العريكة
وهكذا يكون الرجال .
كان الله فى عونى . لقد كذبونى .

بل لقد خدعت الدنيا كلها فيك :
فلا شك في أنك كنت دائما
جبانا كل الجبن ، ولازلت كذلك ·
وهأنا ذى قد تبينت
أن ما أقدمت أنا على مكابدته فى شجاعة
أمر لا قبل لك بتحمله ·
فقل لى يا سيدى ، ما هى الأسباب
التى أفزعتك عندما أوثقت أطرافى ؟ ··
سيدى ، هل عجزت
عن أن تتحمل موت انسان آخر ؟ ··
وعلى رغم من توسلها ورجائها
واغراقها فى التوبيخ والتقريع
فانها لم تصل الى ما كانت ترجو الوصول اليه :
وتحتم عليها أن تقبل البقاء على قيد الحياة ·
أما ما سمحت به لنفسها من التوبيخ
فقد تقبله هاينريش المسكن
قبول الانسان الفاضل الطيب
والفارس الصالح الخير
الذى لا ينقصه شىء من مكارم الأخلاق ··
وعلم المطلع على ما فى القلوب
الذى لا يستعصى عليه الدخول الى أعماقها
فكل باب من أبوابها ينفتح أمامه ،
أن البنت مخلصة كل الاخلاص
صادقة فى معاناتها وآلامها ·
وكان مكره الحلو
قل حل بالاثنين
ليبتليهما ابتلاء عظيما
كما ابتلى من قبل أيوب العظيم ·
وأظهر المسيح صاحب القدسية
آيات حبه للاخلاص والرحمة
وخلصهما جميعا
من بلائهما كله

ومنحهما فى التو والساعة
الطهر والشفاء .
فتحسنت حال السيد الطبيب هاينريتش
وشملته فى الطريق
عناية الله الواسعة
وشفته شفاء جميلا
حتى أصبح تماما
كما كان قبل عشرين عاما .
وفرحا كلاهما فرحا عظيما
وأرسل السيد الخبر الى بلده
الى كل من كان يعلم عنهم
أن الرضا والخير
يملآن قلوبهم نحوه
حتى يسعدوا بسعادته
وهذا هو ما حدث بالفعل
فقد أحسوا بفرحة غامرة
للنعمة التى أسبغها الله عليه ...
أما ما جرى بعد ذلك
فما عساى أقول عنه ؟
لقد كان أعظم وأروع مما جرى من قبل
وكان كله مفعما بالخير والشرف .
وكان السيد يرد كل ما ناله من خير
الى الله
وآلى على نفسه أن يتبع وصاياه
أكثر مما كان يفعل قديما
ولهذا عظم قدره وبقى ثابتا راسخا على الأيام ...
وطفق أولو الألباب من أهله
ينصحونه بالزواج المعقود
ويمتدحونه له ،
ولكنهم اختلفوا فى الرأى ..
فتكلم السيد هاينريتش :
« تعلمون جميعا

أنني كنت حتى وقت قريب
مصابا بداء قبيح
نفر الناس مني .

أما الآن فلا رجل يفر مني ولا امرأة
فقد تكرم الله على
فعافاني في بدني ...
وأعلموا جميعا

أن هذه البنت الطيبة
يرجع اليها الفضل
في شفائي من بلائي
انها تقف الآن بجانبي

وانها حرة مثلما أنا حر
وأنا أريد أن أتزوجها
مستجيبا في ذلك لنداء العقل
وأدعو الله أن تروا رأيي

وتوافقوا على زواجي ... »
فتكلموا جميعا .

لا فرق بين أغنياء وفقراء
فقالوا ان القرار نعم القرار ...
وبعد حياة حلوة طويلة
انتقل كلاهما
الى ملكوت الخلود
عسى الله أن يكتب لنا
بعد عمر طويل نفس المصير
وأن يجزينا خير الجزاء
كما جزاهما من فضله . آمين » .

ايفاين

هذه القصة الشعرية التى يصل عدد أبياتها الى ٨١٦٦ هى آخر الأعمال القصصية التى كتبها ، وهى أشهرها وأكملها • وقد اعتمد فى تأليفها ـ كما فعل فى حالة قصة « ايريك » ـ على أصل فرنسى من تأليف الشاعر القصصى الفرنسى كرتيان دى طروا : الفارس صاحب الأسد • ويمكن ان نقول ان الفكرة الأساسية التى تقوم عليها القصة تنويعات على الخط الأساسى فى أحداث قصة ايريك آلا وهو الاعتدال والموازنة بين الحب والبطولة • واذا كان ايريك قد أسرف فى الحب على حساب البطولة ، فان ايفاين بطل القصة الثانية يهمل الحب ويغلب الفتوة والبطولة •

وايفاين فارس من فرسان المائدة المستديرة ، كان يجلس ذات مساء فى بلاط الملك أرتوس مع الفرسان الى المائدة المستديرة ، فقص أحدهم قصة مغامرة خطيرة له عند النبع السحرى فى غابة بريزليان ، فقد انقض عليه الملك القائم عليها ، وأسقطه عن جواده ، واستولى على الجواد ، وهزم الفارس هزيمة منكرة • واستاء الفارس ايفاين استياء شديد لهذه الفعلة النكراء ، وقرر أن ينتقم لصديقه الفارس المهزوم ، كذلك قرر الملك أرتوس أن يذهب بقواته الى النبع السحرى لتأديب صاحبه والانتقام لفارسه • ولكن ايفاين سبق الى هناك ، ونازل العدو ، وهزمه واضطره الى الفرار ، ثم لاحقه وجرحه جرحا مميتا •

ولكن ايفاين فوجىء بأحداث عجيبة • فبينما هو يقترب من قلعة صاحب النبع ، اكتشف أن حصانه تمزق من تحته ، وأن بوابتين أغلقتا عليه ، فظل حبيسا بينهما • ولم ينقذه من حبسه الا لونيته ، الخادم المخلصة التى تعمل فى حاشية الملكة « لاودينه » • وكانت الملكة تحتكم على خاتم سحرى يوقف الجن ، ويبطل أعمالهم • واصطحبت لونيته الفارس ايفاين الى الملكة لاودينه •

كانت الملكة لاودينه حزينة لوفاة زوجها الذى خر صريعا فى معركته مع ايفاين ، فرق ايفاين لها ، بل أحبها وفكر فى الزواج بها · فلما علمت لونيته بنيته ، واستراحت لها ، سعت له عند سيدتها ، وأقنعتها بأن الملك الذى مات قد قضى نحبه فى عملية فرسانية ، وأن النبع السحرى يحتاج الى رجل يقوم عليه وتكون له قوة ايفاين وشجاعته · واذا كانت الملكة قد رفضت فى بادىء الأمر ، فانها عادت وقبلت أن تلتقى به لتتعرف اليه · ولقد عشقته الملكة من أول نظرة ، وتزوجته فأصبح هو الملك صاحب النبع السحرى والقائم عليه ·

وأتى الملك أرتوس بفرسانه ، دون أن يعلم ما قد جرى فى تلك الأثناء ، وبدأ ينفذ خطة الانتقام ، فأرسل فارســـا لمنازلة صاحب النبع وتأديبه · واشتبك فارس الملك أرتوس وايفاين فى معركة صغيرة ، انتهت بانتصار ايفاين الذى استولى على حصان المهزوم ، وذهب وهو يركبه الى الملك أرتوس ، وقدم نفسه اليه ، فعرفه ، وقبل دعوته ، فنزل الملك أرتوس ورجاله ضيوفا على ايفاين أسبوعا · فلما تأهب الضيوف للانصراف تحدث الفارس جافاين مع صديقه ايفاين ، ونصحه بأن يعتبر بما جرى على ايريك ، فيعطى البطولة حقها ، والحب حقه ·

وسرعان ما قرر ايفاين أن يترك زوجه ويخرج الى ساحة البطولة ، واتفق مع زوجه على أن يعود اليها بعد عام ، فيكون قد جمع بين الحسنيين ولكن ايفاين ظل يمارس النشاط الفرسانى،وينتقل من مغامرة الى أخرى، ويشارك فى كل ما كان يجرى فى بلاط الملك أرتوس من أعمال البطولة والفتوة · ونسى ايفاين موعده ووعده ، وسارت الحال على هذا المنوال حتى ظهرت لونيته ذات يوم فى بلاط الملك أرتوس ، وأعلنت ايفاين بأن سيدتها تحولت عنه لأنه نسى وعده ، ولم يحترم كلمته ، ووضع اخلاصه موضع الشـــك ·

فلما سمع ايفاين هذا الكلام فقد عقله ، وهام على وجهه مخبولا فى الغابة ، يأكل اللحوم النيئة ، ويخالط الكواسر والوحوش · وذات يوم مرت به بعض النسوة فى الغابة ، فصعب عليهن حاله ، ودهننه بمـــرهم موصوف فى هذه الحالات ، يحدث أثرا مؤكدا ، ولكن أثره لا يظهر الا بعد سنين · وهكذا ظل ايفاين فى الغابة على حاله بين الحيوان · ورأى ايفاين ذات يوم أسدا فى محنة ، فقد هجم عليه تنين أوشك أن يفتك به ، فأعان الأسد وانتصر له · وعرف الأسد لايفاين جميله ، فظل رفيقا له ، لا يتركه

فى صحوه ومنامه ، بل يسير معه حيثما يسير ، ويربض بجواره عندما يخلد للراحة .

وفيما هو يتجول ويتنقل من مكان الى مكان ، وصل ومعه أسده الى بلاد زوجه دون أن يعلم عن ذلك شيئا ، ووجد امرأة حبيسة تنتظر تنفيذ حكم بالاعدام حرقا حكم به عليه ظلما رئيس ديوان الملكة لاودينه . ودخل ايفاين ومعه اسده فى معركة من اجلها ، وخلصها من محنتها . كانت تلك المرأة هى لونيته الخادم المخلصة . ولكنه لم يكشف لها عن شخصيه ، وسار فى طريقه ، فغلب اثنين من العمالقة ، وأنقذ مئات من العذارى الحبيسات . ثم ذهب فى نهاية المطاف الى بلاط الملك آرتوس ، ونازل هناك الفارس جافاين منتصرا لصبية ضد أختها التى حرمتها من الميراث . وكانت منازلة عجيبة فى تكافؤها ، فتعرف الفارسان أحدهما على الآخر ، وتعانقا . وحلا مشكلة الميراث بالعدل والقسطاس . وعمت الفرحة بلاط الملك أرتوس الذى نزل به ايفاين حتى شفى من مرضه . وهنا عاد الى زوجه ، ونال عفوها. وأصلح ما فسد من أمره معها . وكانت لونيته لا تفتأ تتدخل لصالحه بما جبلت عليه من طيبة ، وما أخذت به نفسها من اعتراف بالجميل . وبدأت حياة من الوفاق والاعتدال سعد بها ايفاين ولاودينه .

مغامرة فارس المائدة المستديرة :

أما ما حدث لى فى الحقيقة
قبل عشرة أعوام أو نحوها
فقد خرجت أطلب المغامرة
وكنت أحمل أسلحتى كعادتى
واتجهت الى غابة بريزيليان .
كانت هناك دروب كثيرة
فاتجهت ناحية اليمين
الى درب وجدته
وكان ضيقا وعرا
وسرت فيه بين الأشواك والعراقيل
وظللت هكذا طوال اليوم
وصدقونى عندما أقول لكم
اننى عانيت من المشقة

ما لم ألقه من قبل ولا من بعد ·
فلما اقترب المساء
وجدت دربا أخضر
حملني الى خارج الغابه
واوصلني الى سهل منبسط ·
وهكذا سرت بعض الوقت
فقطعت ميلا او نحوه
ورأيت اذ ذاك قصرا
فاتجهت اليه أطلب الراحة ·

وسرت نحو باب القصر
وكان احد الفرسان يقف عنده
ويحمل على يده وهو واقف
صقرا صغيرا فتيا
كان هذا الفارس هو ملك القصر
ما ان اكتشفني من بعيد
حتى رأيته يمتطي صهوة جواده
ويأتي الى قبل أن أتوجه اليه بطلب
ولم يدع لى فرصة لألقى التحية
كما ينبغي أن تلقى
بل أمسك لجام حصاني وركابه
وأحسن وفادتي وأكرمني
عسى الله أن يجزيه عني
أحسن الجزاء ·

وكان هناك قرص يتدلى عند الباب
من سلسلتين علق بهما
فقرعه فانطلق منه رنين
تردد في جنبات القصر
ولم يمض وقت قليل
حتى كانت حاشية السيد

قد اقبلت مسرعة
الى فتية وغلمان
حسان الهيئة . صغار السن .
يلبسون ثيابا فضية
فرحبوا بى اجمل ترحيب
واهتموا بامرى وأكرمونى
واعتنوا بجوادى كذلك
ثم ما لبثت أن رأيت
وأنا أدخل الى القصر
بنتا أتت ترحب بى
كانت جميلة جمالا رائعا
ما رأيت مثلها ولن ارى
فخلعت عنى اسلحتى
ولا زلت الى اليــــوم أشــــكو
شكوى لا ينبغى أن يدهش لها أحد
من أن حمالات أسلحتى كانت قليلة
فلم يكن بالبنت حاجة
الى أن تعمل معى الا مدة وجيزة
لقد فرغت من خلع أسلحتى عنى بسرعة كبيرة
ويا ليتها كانت قد أطالت ولم تفرغ قط .
وألبست بعد ذلك
عباءة قرمزية اللون .
فما أتعسنى من انسان
بعد أن نعمت برؤيتها
تحتم على أن أفترق عنها بعد وقت قصير .

ولقد بقينا الى حين وحدنا
وأدركت البنت الطاهرة النقية
أننى سعيد بالبقاء معها
فأخذتنى معها بعيدا عن الناس
الى كــــلأ نضـــــير
لم تشهد الدنيا أجمل منه

ويعلم الله أنني
لم أغضب لهذه الخلوة
فقد وجدت البنت البنت تجمع فى خصالها
الحكمة مع الشباب
والجمال البارع مع الفضيلة الخالصة
وجلست بجانبى متلطفة معى
واستمعت الى كلامى وما كان أكثره
وردت على بكل الرقة والود ·
لم يحدث من قبل ان ملكت على نفسى
واستولت على جنانى وفؤادى
بنت أو امرأة بمثل هذه القوة
ولا أظن ان ذلك سيحدث مرة أخرى ·
وما أعظم أسفى . وما أشد حزنى
عندما جردنى من هذه السعادة الغامرة
رسول أتى الينا بعث به السيد
ليدعونا الى تناول الطعام
فانقطع الحديث الحلو وانتهت السعادة ·
فلما ذهبت الى المائدة
رحب بى السيد مرة أخرى
وأكرمنى اكراما عظيما
لم يلقه ضيف من قبل ·
وبارك المسالك والدروب
وشكر لها صنيعها
لأنها حملتنى اليه
وزاد فى اكرامى وتشريفى
فلم يفرق بينى وبين الفتاة
بل تلطف وتعطف على
فتركنى أتناول طعامى معها ·
وكانت المائدة حافلة بكل شيء
لم يغفلوا عن كبيرة أو صغيرة
مما ينبغي أن تغص به المائدة

يعم كرم الضيافة مداه .
وقدموا الينا عن طيب خاطر
الأطعمة الطيبة الشهية .
فلما فرغنا من الطعام
جلسنا مبتهجين نتحدث
فكنت فيما قلت من كـــلام
انني ركبت جوادى وخرجت طلبا للمغامرة
استبدت به دهشة شديدة
وقال انه لم يستقبل من قبل قط
ضيفا سمـــع منـــه
انه خرج يطلب المغامرة
ورجانى اذا سلكت هذه الطريق مرة أخرى
الا أعـــود اليـــه
ولم أعتـــرض بشيء
ووعدت بأن أحفظ العهد ...
فلما انصرفت ذهبت راكبا حصانى
الى السهل الفسيح بالغابة
وكان يمتد فى وسطها ،
ووجدت فى قلب الغابة
تربة عريضة متوارية
خالية من البشر تمـــاما .

واذا بى أرى لســـوء حظـــى
منظـــرا كئيبـــا
رأيت عددا كبيرا من الحيوانات
التى كنت قد سمعت أسماءها
تتصـــارع وتتشـــاجر
على نحو بالغ العنف
فاشتبكت الجواميس والثيران البرية معا
اشتباكا عنيفا رهيبا
وهى تتصايح صيحات فظيعة
فتواريت الى الخـــلف
وندمت على أننى أتيت الى هذا الموضع

يسمو اليها راسي
لما استطعت ان ادركها عن نفسي
الا بالصلاة والتماس منـــه الله .
وبينما حسبت ان اجد وسيلة للرحيل
تبينت ان رجـــلا هنـــاك
يقعـــد بينهـــا
فعـــادت الى شـــجاعتي
الا انني عندما اقتربت منـــه
ورأيتـــه عـــلى حقيقته
خفت منـــه خوفا شـــديدا
نحو من الحيوانات بل اكثر .

كانت هيئته الانسانية
بشعة كهيئـــة البهـــائم
أو كالعمـــلاق الأســـود
كـــان ضخمـــا رهيبـــا
لا يكاد الانسان يتصور منظره .
وكان رأسه وحده في الحقيقة
أكبر من الثـــور البرى
وكان شـــعر كثيف أســـود
يجتمع فوق رأسه ولحيته
ويلتصق متلبدا فوق جلده
وكان وجهه عريضا يقاس بالذراع
وبه تجاعيد كبيرة عميقة غائرة
وكانت أذناه تشبهـــان
أذني انســـان الغـــابة
يحاكي صيوانهما في الضخامة حوض سقاية الحيوان
وعليهما شعر كث طويل يقاس بالشبر
أما شاربا هذا الرجل الرهيب
وحاجباه فكان شعرها كثيفا
طـــويـــلا رمـــاديـــا
وأما أنفه فكان مثل منخار الثور

افطس ، واسعا كثيف الشعر
وكان وجهه جافا مسطوحا
ـ آه يا للبشـــاعة ! ـ
وعيناه حمراوين ينطلق منهما الغضب
اما فمـــه فكـــان عريضـــا
يمتد الى الوجنتين كلاهمـــا
من كـــلا الجانبين
وقد برزت منه الى الخارج
أسنان كأسنان الخنزير البرى
طويلة ، عريضة . ضخمة ، حادة
وكأنما كان رأس هذا الرجل البشع
ملتصـــقا بعظمـــة الذقـــن
وملتحما كذلك بالصدر من الجانبين
وكان ظهره مقوسا معوجا
مشـــوها ومسنمـــا
وقد ارتدى ثيابا غريبـــة
ائتلفت من قطعتين من الفـــراء
سلخها لتوه على ما يبدو
من اثنين من الحيوان ·
وكان يحمل هـــراوة ضخمة
ما رأيتها حتى تملكنى رعب شديد

فلمـــا اقتربت منـــه
ورآنى حـــق الرؤية
نهـــض من فـــوره
وســـار نحوى فاقترب مـــنى
ولم يبد عليه أنه يضمر لى
شرا ولم يبد عليه كذلك الخير
ولكننى لم أكن متأكدا من حقيقة الأمـــر
ولذلك تأهبت للدفاع عن نفسى
ولم يتكلم هو ولم أتكلم أنا أيضا
فلما رأيته يلوذ بالصمت

ظننت أنـــه أبكـــم
وحتى أتبين ذلك سألته :

فقلت له : « هل تريد بي شرا أو خيرا ؟ »
فقال : « انني أصادق كل انسان
لا يؤذيني بشيء . »
ـ « فهل يمكنك أن تشرح لي
وتقول لي أي كائن أنت . »
ـ « أنا انسان كما ترى . »
ـ فقل لي ماذا تعمل . »
ـ « أنا أرعى هذه الحيوانات . »
ـ « فقل لي ألا تفعل بك شيئا . »
ـ « بل انها لتتمنى ألا أفعل أنا بها شيئا . »
ـ هي تخافك حقيقة ؟ »
ـ « أنا أرعاها ، وهي تخافني
خوفها من صاحبها وسيدها . » ...
ثم قال : « انما أوصلني الى هذا
لســـاني ويـــدي
ورجائي وتهديدي
فهي ترتعـــد أمـــامي
ولا تفعل شيئا أو تنصرف عني الا بارادتي ...
لقد قلت لك الكثير
وأجبت عـــلى أسئلتـــك
التي حلا لك أن توجهها الي ،
فقل لي أنت الآن عما تبحث »
فقلت له : « سأجيب على سؤالك
انني أبحث عن المغامرة »
فقال الرجل الفظيع :
« المغامرة ؟ ما هي المغامرة ؟ »
سأشرح لك المقصود على خير ما أستطيع .
انظر الي « والى الطريقة التي تسلحت بها
أنا هكذا يسمونني فارسا

وأنا كفارس مهمتي
أن أخرج ممتطيا صهوة جوادي
فأبحث عن فارس مثلي في تسليحه
أدخـــل معـــه في منازلة .
فإذا دق عنقي عند قيامي بالحرب العظيم
وإذا أنا انتصرت عليـــه
فإن الناس يعتبرونني رجلا بمعنى الكلمة
فيمنحونني تقديرا وفخارا .
فإذا كنت تعرف عن قريب أو بعيد
مغـــامرة من هـــذا النـــوع
فلا تكتم أخبارها عني
وأعلمـــــني بهـــــا
فليس لي من هدف غير ذلك . »

عندئذ أجـــاب على قائلا :
هكذا أنت إذن قررت
أن تبحث عن المتاعب
ولا تحب الهدوء والراحة في حياتك .
والحق انني لم أسمع طوال حياتي
شيئا من هذا القبيل
عن المغامرة التي تحدثت عنها .
وإذا كنت تريد أن تخاطر بحياتك
فلا حاجة بك إلى مزيد من الاستفسار والاستقصاء
فأنا أعرف لك شيئا مناسبا
هناك نبع في مكان قريب
يبعد مسافة لا تزيد على ثلاثة أميال
فإذا أنت ذهبت إليه
وفعلت ما ينبغي أن تفعله
وعدت دون أن تتكلل بالعار الشديد
فأنت رجـــل بمعنى الكلمـــة
ولن أشك في صـــحة كلامك .
وما فائدة الاسترسال في الوصف ؟

لقد علمت أنك رجل لا تهاب
وسترى بنفسك عما قريب
حقيقـــة الأمـــر ٠

ولكنني أريد أن أحدثك عن النبع ٠
هناك الى جانب النبع كنيسة
جميلة وصغيرة ـ
والنبع نفسه ينساب منـــه
ماء بارد صـــاف غاية الصـــفاء
لا تمســـه شمس ولا امطـــار
ولا تعكـــره ريـــاح
وتلقى عليـــه الظـــلال
شـــجرة زيزفـــون جميلة
لـــم تـــر العين اجمل منهـــا
تقـــوم عليه مقـــام السقيفه ٠٠٠
وفـــوق النبـــع
حجرة لطيفة رقيقة جميلة
ومن تحتها أربعة حيوانات
منحـــوتة في الرخـــام :
والحجـــرة كثيرة الثقـــوب
ويتدلى من فـــرع من فـــروع الشجرة
اناء من الذهب الخالص
لـــم يؤت انسان ذهبـــا أنقى منـــه
أما السلسلة التى علق فيها الاناء
فمـــن الفضـــة المدقـــوقة
فاذا لـــم تتردد عن خـــوف
فتناول الاناء واغترف به الماء
وصـــبه عـــلى الحجـــرة
التي وســـط النبـــع
فاذا انصرفت ســـالما عـــزيزا
فقـــد حالفك حـــظ عظيم ٠ »
وأشـــار لى الرجـــل الرهيب

الى درب عـــلى يســـاره
فسلكتـــه الى نهـــايته
فوجدت مصداق ما قاله .
فقد حللت بمكان رائع
لم يسمع انسان
فى طول الدنيا وعرضها
انشاد أطيار أحلى مما سمعت هناك
عند شجرة الزيزفون
اذ وصلت اليها راكبا حصانى ...
ورأيت النبع فى ظلال الشجرة
على النحو الذى وصفه رجل الغابة
وتبينت أن الحجر من الزبرجد
وأنه يبرق فى مواضع كثيرة
حيث العقيق الأصفر
يتلالأ أجمل من نجم الصباح

عندما يشرق فى يوم صاف بلا غيوم .
فلما وجدت الاناء معلقا ..
سولت نفس الحمقاء
التى كثيرا ما أوردتنى موارد الأذى والضر
أن أسكب ماء على الحجر
واذا بالشمس التى كانت ساطعة تظلم
واذا نشيد الأطيار يتلاشى
فقد صمتت الطيور المغردة توقعا لعاصفة وشيكة .
وبدأت السحب
فى تلك اللحظة نفسها
تتكاثف من الجهات الأربع
وتبدد نور النهار وأظلمت الدنيا
حتى لم أعد أرى شجرة الزيزفون .
لقد حدثت مصيبة هائلة .

ورأيت من حولى ومضات كثيرة
فى كل صوب وحدب

آلاف الآلاف من ومضات البرق
وتفجر الرعد هائلا
وملأ الدنيا دويا مرعبا
حتى انني ارتميت الى الأرض ·
ثم انهمر المطر والبرد
ولولا أن الله شملني برحمته
لما بقيت بعد هذه العاصفة الهوجاء حيا
ولكنت قد مت أكثر من مرة ·
لقد حلت بالغابة
مصيبة كبيرة
فاذا كانت الشجرة لتوها
عظيمة وارفة ، فقد تجردت من ورقها
وبقيت عارية كأنما أصابها حريق ·
أما حيوانات الغابة
فقد نفقت لتوها
الا ما استطاع منها الهرب بحياته ·
ولقد خشيت على نفسي من العاصفة العارمة
وظننت أنني لن أبقى حيا
وأنني هالك لا محالة
واذا بالبرد يكف عن السقوط
واذا بالعاصفة تنتهي
ونور النهار يعود وضاحا ·

فلما تلاشى الخطر
وصفا الجو
قلت في نفسي لو أنني وقفت
بجانب النبع عشر سنوات
ما فكرت في العودة الى سكب الماء على الحجر ·
ويا ليتني لم افعل ما قد فعلت ·
وعادت الأطيار من جديد
وغطت بريشها

شجرة الزيزفون مرة أخرى
وانطلقت تغني وتشدو
على نحو أحلى وأعذب من ذى قبل .
حتى اننى نسيت
كل ما حل بى من أهوال
وظننت أننى فى الفردوس ....
واذا بالألم والعار
يقتربان منى مرة أخرى .
فقد رأيت عن بعد فارسا
يأتى نحوى راكبا جواده
وقد استبد به الغضب
وبلغ به كل مبلغ
حتى أنه لاح لى كما لو كان جيشا بأسره
فاتخذت أهبتى للدفاع
ولكنه كان رجلا ضخم البدن
وكان حصانه كبيرا كذلك
مما جعلنى فى وضع لا أحسد عليه .
وكان صوته يحدث دويا كالنفير
وهو يصرخ ويتوعدنى بالويل والثبور
كما تبين لى فى وضوح
ولكننى رأيته وحيدا
فخف ما بى من خوف وريبة
وأيقنت من اننى سأدافع عن حياتى
فأحسنت سرج حصانى
وامتطيت صهوته من جديد
فلما رآنى عن كثب
صرخ فى صراخا اشد عنفا
وقال : « أيها الفارس أنت رجل خسيس
لقد أحدثت بى ضررا بليغا
وآذيتنى أذى أليما
بما فعلته عن كبر وخيلاء .
ما أسوأ الحال التى انتهت اليها غابتى

لقد أفسدتها شر فساد
ودفعت الحيوانات الى الموت
وبددت طيورى
ولهذا فاننى اعتبرك عدوى
فاما أن تكفر عن سوء فعلتك
أو تدفع حياتك ثمنا لها ٠
ان الطفل عندما يضربه أحدهم
يبكى ويولول وهو على حق فى ذلك
كذلك أنا أشكو مر الشكوى مما فعلته بى
وأنا لم أصبك بضرر
ولم أسىء اليك فيما أعلم
لقد آذيتنى دون ذنب منى
فلا سلام بيننا بعد الآن
ودافع عن نفسك ان أردت البقاء على قيد الحياة ،
فحدثته عن براءتى
وتوسلت الى رحمته
لأنه كان أقوى منى
ولكنه لم يرد على كلامى
الا بقوله ان على أن أدافع عن نفسى ٠
ولقد كنت أعلم يقينا اننى لن أستطيع النجاة بنفسى
ولكننى فعلت ما استطعت
وكان ما استطعته قليلا
فقد اندفعت نحوه بالرمح
فخلعنى عن حصانى
ولم أحقق من نصر
اللهم الا تحطيم الرمح
ثم قبض على بيده قبضة قوية
ورمانى خلف الحصان على الأرض
حتى ظننت اننى لم أتعلم فى حياتى
كيف يكون ركوب الحصان
ثم أخذ الحصان وتركنى على الأرض
اعانى من سوء حظى ومحنتى

وزاد في احتقاري وامتهاني
فلم يعرني التفاتا
ولم ينظر مجرد النظر الى .
وسلك مسلكا يوحي بأنه
في كل يوم من الأيام
يعمل هذا العمل عشر مرات .
لقد خرج بالفخار ، وخرجت أنا بالعار
واذا كان الأذى قد لحق به بسببي
فانني كنت بريئا من بعضه
ولقد كانت نيتي طيبة
وكانت شجاعتي ثابتة
ولكنني لم أوت القوة
على النيل منه
فانهزمت رغما عني .
وقعدت طويلا أفكر
وأدير أمور في ذهني
وأبحث عن مخرج لي من هذه الورطة
فقد كان سربالي ثقيلا
لا أستطيع السير على الأقدام وهو يغطي بدني ...
فالقيته أنا المسكين البائس ...
وقررت أن أذهب الى السيد
الذي كنت في الصباح قد ودعته
فلما وصلت اليه
أحسن استقبالي
كما أحسن استقبالي من قبل
عندما ذهبت اليه راكبا حصاني
وعاملني بالرقة والأدب ...
وحاول هو والفتاة ما استطاعا
أن يخففا عني ويواسياني
جزاهما الله عني خير الجزاء .

فولفرام فون ايشينباخ

تنحصر مصادر معلوماتنا عن حياة هذا الشاعر العظيم في الاشارات التى وردت عنه فى كتابات معاصريه وفى الأخبار التى ذكرها هو عن نفسه وحياته فى أعماله . ويمكننا اعتمادا عليها أن نستنتج أنه ولد حول عام ١١٧٠ وأنه مات بعد عام ١٢٢٠ بقليل . كذلك نستنتج انه كان من طبقة الفرسان ولكنه كان فقيرا « لا يلقى الفأر فى بيته طعاما يفرح به .. بل عليه أن يبحث له عن كسرة خبز يسرقها » . كما كتب هو . ومن شكاواه : « ما أكثر ما جرى على .. وما أشد الفاقة التى عانيت منها .. أنا فولفرم فون ايشينباخ » .

وربما كان فقره هذا هو السبب فى جولاته فى ربوع ألمانيا بحثا عن أمير سخى يقدر شعره فينفق عليه وعلى أسرته التى يذكرها وبخاصة ابنته ودميتها التى كانت تلعب بها . ومما ذكره فولفرام عن نفسه أنه لايعرف القراءة والكتابة ، مما حير الباحثين ودفعهم الى البحث عن حلول لهذا اللغز الغريب . وأكبر الظن أنه كان يعبر عن تواضعه الشديد . وربما عن عدم تبحره فى اللغة اللاتينية . ولكنه كان يعرف الفرنسيه ما فى ذلك شك ، وكان على اتصال بالثقافة العربية الاسلامية ما فى ذلك شك أيضا . وكان نفر من الباحثين يقللون من أهمية هذا الاتصال بالثقافة العربية الاسلامية ، ولكن البحوث أظهرت جوانب عديدة من انعكاسات هذه الثقافة فى أعماله ، وما زالت تستجلى المزيد .

وفولفرام فون ايشينباخ هو صاحب أعظم قصة شعرية ألمانية أبدعها العصر الوسيط وهى قصة برتسيفال . وله قصتان أخريان لم تتما هما قصة فيليهلم وقصة تيتوريل .

برتسيفال

قصة برتسيفال قصة ضخمة تقع فى ٢٤٨١٢ بيتا من الشعر ، تنتظمها فصول أو كتب عدتها ستة عشر كتابا • وقد اعتمد الشاعر الألمانى على مصادر متعددة منها قصة الجرال التى كتبها الشاعر الفرنسى كرتيان دى طروا • ومن المؤكد أن فولفرام كان على علم بالصوفية ، وبالفلك والتنجيم ، وأنه شغل بالأحجار وخواصها وربما كان على علم بالحجر الأسود وببعض ما كتب عنه •

تبدأ قصة برتسيفال أولا بقصة والده جاهموريت ، وكأنما يريد الشاعر القصاص أن ينبه الى أثر الوراثة فى تكوين الانسان وفى مسلكه ومصيره • خرج جاهموريت الى الشرق العربى الاسلامى وعمل فارسا لدى الخليفة فما كان ليقبل العمل مع من هم دونه قدرا من الملوك • ولقد أحب جاهموريت وتزوج مرتين ، هيرتسلويده الغربية التى ولدت له ابنه بارتسيفال وبيلاكاانه الشرقية السمراء ـ المسلمة ؟ ـ التى ولدت له ابنه فايرفيس • ومات جاهموريت بطلا فى أرض المسلمين ودفن معززا مكرما بين ظهرانيهم •

ولما كانت هيرتسلويده قد عانت الكثير من خروج زوجها الى بلاد بعيدة وعكوفه على المغامرة حتى الموت ، فقد حجزت ابنها بارتسيفال فى غابة سلطانة لينشأ فى أحضان الطبيعة ولا يفكر فى حياة الفروسانية الخطيرة • ولكن بارتسيفال كان سلسيل فرسان أرتوس من ناحية أبيه ، وكان من ناحية أمه سليل فرسان الجرال ، أي أنه كان يجمع الى مفاهيم الحب والشهامة مفاهيم الرحمة والرأفة • فلما شب بارتسيفال عن الطوق وجد نفسه مدفوعا الى البحث عن الله ، ميسرا لاتباع خطى الفرسان • حقيقة أن أمه فرضت عليه البراءة فرضا ولم تدعه يعرف شيئا عن اسمه وأهله ، ولكنه أصر على أن يكون فارسا مثل أولئك الذين رآهم ، فألبسته ثياب المجانين ، وأركبته حصانا هزيلا ، حتى يفشل فيعود اليها ثانية ، ولكنه لم يعد • وماتت الأم حزنا وأسفا •

واذا كانت امه قد حدثته عن تأدب الفارس مع النساء ، وعن القبلة والحلية ، فقد أساء الفهم ، وقبل أول امرأة صادفها وأخذ حليتها عنوة . كانت تلك المرأة هي السيدة يشوته التي ظن بها زوجها الظنون . ففرض عليها من عقوبات التكفير الشيء الكثير العسير . والتقى بارتسيفال بعد ذلك بابنة عمه السيدة زيجونه التي كانت تعيش على الاخلاص لحب زوجها الميت ، فحدثته عن حسبه ونسبه ، فزاد شوقه الى الظهور والعظمة . وحدثته عن الألم فلم يفهم شيئا . ولكنه ظل على حماقته وجهله . فقتل الفارس الأحمر ايتر على نحو لا يليق بالفرسان ، فانسد بذلك أمامه السبيل الى فرسان المائدة المستديرة ، فرسان الملك أرتوس .

والتقى بعد هذا الخطأ الكبير بعمه جورنيمانتس الذى شرح له الكثير من مفاهيم الفرسانية ، وبين له خصال الاعتدال والأدب التى ينبغى للفارس أن يتحلى بها . وحضه على ألا يكثر من الأسئلة ، وكان العم يعنى بهذا ألا يثقل الانسان على الآخرين بالكلام الكثير . ولم يكن يعنى — كما فهم بارتسيفال — أن يصمت الانسان عندما يرى الآخرين يتألمون . ووجد بارتسيفال السبيل الى قلب السيدة كوندفيرامور ، وقد أنقذها من اعدائها ، فتزوجها ، ثم ما لبث أن تركها ليستأنف مغامراته ، وليجد أمه التى كان يظن أنها لا تزال على قيد الحياة . وحملته رجلاه الى الجبل الغريب ، وقصر الجرال ، وحضر شعائر الجرال ذلك الحجر الذى يجسم الكثير من الأسرار وينطوى على قوة لايعلمها الا القليلون .

ورأى هناك فى قصر الجرال ملك الجرال أنفورتاس يعانى من جرح غريب ، كان يمكن أن يبرأ منه لو أن بارتسيفال سأله عنه ، ولكنه عملا بنصيحة جورنيمانتس وقد أساء فهمها ، لم يسأل ، فظل الملك يعانى . وأثبت هو أنه ليس جديرا بعرش الجرال . هذه الأشياء التى لم يدركها تكشفت له فى أثناء حديث له مع زيجونه . التى لم تكتف بالتوضيح والشرح ، بل سبته ولعنته . كذلك فعلت الكاهنة كوندرى ، رسولة الجرال ، وكاهنة المائدة المستديرة ، التى بكت على ما جرى للجبل الغريب بكاء مرا . وقد استبدت الحيرة ببارتسيفال أمام هذه الأمور الغامضة فكفر بربه الذى كان يظنه كملوك الدنيا يثيبون ويعاقبون ويدرك الانسان مقاصدهم البعيدة والقريبة . ثم عاد وسعى الى فهم أصوب .

ويترك الشاعر القصاص أمر بارتسيفال الى حين ، ويحكى فى فصلين كاملين عن الفارس جافان ، من فرسان المائدة المستديرة ، تعب

وعانى . ولكنه وصل في النهاية الى هدفه الأسمى ، فأصبح من فرسان المائدة المستديرة وفرسان الجرال .

فلما عاد الحديث عن بارتسيفال ، حملته الأحداث الى عمه الناسك تريفريتسنت الذى كشف له ذنبه ، وفتح له السبيل الى الرب الرحيم . ولقد وصل بارتسيفال الى هذا الناسك الحكيم عندما ركب ذات يوم حصانه وسلم نفسه لربه صادقا ، راضيا بقدره ومشيئته . وكان رأى الناسك أن الذنب الذى حمل بارتسيفال وزره لم يكن من الرب ، بل كان من نفسه هو ، أما الغفران فمنة الهية ينالها الانسان الكادح الى ربه .

ويسترسل فولفرام فى فصلين آخرين فى قصة جافان ومغامراته من أجل الحسناء أورجيلوزه ، وما شاهده فى القصر المسحور . وتشاء المصادفة أن ينازل بارتسيفال جافان دون أن يعلم أحدهما شيئا عن الآخر ، وتستمر المنازلة الى أن يتبين أن الفارسين متساويان فلا يمكن أن يغلب أحدهما الآخر . وهكذا ينفتح الطريق أمام بارتسيفال ليدخل فى زمرة المائدة المستديرة . ولكن بارتسيفال يخرج بحثا عن أخيه فايرفيس العربى المسلم ، ويدخل الاثنان معا الى بلاط أرتوس ، جديرين به . بل ان فايرفيس كان يبز الآخرين بما أوتى من خصال رفيعة . وكان الشاعر يعبر بذلك عن مفاهيم انسانية يتجاوز بها التعصب القديم .

وتأتى الكاهنة كوندرى تحمل أخبارا سارة ، لقد أصبح السبيل أمام بارتسيفال ممهدا ليصبح ملكا للجرال ، ويذهب الى هناك ومعه أخوه فايرفيس — فما ان يرى الملك أنفورتاس الجريح حتى يسأله عما به ، فيبرأ . كذلك يجد كوندفيرامور ويجدها قد ولدت له فى هذه الأثناء ابنين توأمين ، لوهنجرين الذى سيتولى بعد أبيه مملكة الجرال ، وكارديس الذى سيتولى المملكة الدنيوية . ويدخل فايرفيس فى دين السيدة ريبانسه القائمة على الجرال ، ويرحل معها الى الهند للتبشير بالمسيحية ، فيكون من نسلهما الملك الكاهن يوحنا .

ويؤكد فولفرام فى نهاية قصته الضخمة أنه اعتمد على رجل من أهل طليطلة اسمه « كيوت » كان على علم بكتاب العلامة فليجيتانيس وهو كتاب باللغة العربية .

في قصر الجرال

ووصل في المساء الى بحيرة
كان الصيادون قد ألقوا مراسيهم
الصيادون الذين يمتلكون المياه هناك ·
ورأى بارتسيفال في أحد القوارب رجلا
يلبس ثيابا فاخرة
وكأنما كان ملكا تخضع له كل البلاد
فما كان يمكن لانسان أن يلبس ثيابا أفخر من ثيابه ·
وكانت قبعته مبطنة بريش الطاووس ·
سأل بارتسيفال هذا الصياد نفسه
أن يدله بحق الله
وبحق آداب اللياقة التي يأخذ بها نفسه
على مكان يأوي اليه ·
فرد عليه الرجل الحزين قائلا : ·.·.·
هناك عند نهاية الصخرة
تتجه الى اليمين
وعندما تصل الى الخندق
سيكون عليك أن تنتظر
ثم أطلب أن ينزلوا اليك الجسر
وأن يفتحوا لك الطريق ···
فاذا وصلت الى هناك ولم تضل
فسأكون أنا في استقبالك
وعليك أن تشكر الشكر الواجب · » ···
فبدأ بارتسيفال السير
ثم أسرع سالكا الطريق الصحيحة
حتى وصل الى الخندق
وكان الجسر مرفوعا ·
ووجد القصر متين البناء
ووقف هناك كأنما تسمر في الأرض ·
فهذه أبراج كثيرة وصروح عديدة
مزودة بعدة الدفاع الرائعة ·
ولو ان كل الجيوش

اجتمعت كلها على حصار هذا القصر
لما فكر المدافعون بعد ثلاثين سنة
فى أن يقدموا كسرة من الخبز لفك الحصار .

وأقبل فارس شاب فى أدب
وسأله عن مقصده
ومن أين أتى
فقال : « لقد أرسلنى الصياد الى هنا
ولقد انحنيت له شاكرا
على أمل أن أجد هنا مأوى » ...
« مرحبا بك يا سيدى
وما دام الصياد هو الذى أرسلك
فلك التشريف واليك الراحة » .
قال الفارس الشاب هذا الكلام وأنزل الجسر .
ودخل الفارس الجسور الى القصر
مجتازا ساحة طويلة عريضة ...
وسار ومعه رفقة رفيعة الى جناح منيف
ووجد مائة من الثريات المنيرة
وفيها الكثير من الشموع المنيرة
تتدلى فوق صاحب الدار
وكانت الحيطان كلها تضىء بشموع كثيرة صغيرة .
ووجد هناك مائة من الآرائك
أعدها القائمون عليها فأحسنوا اعدادها
ومدوا فوقها مائة من الأغطية الوثيرة
وكان الناس يجلسون أربعة أربعة
وفى وسطهم ترك مكان خلاء
ملئ فيه سجادة مستديرة
وهذه أشياء لا تعجز عنها
خزائن ابن ملك فريموتل
كذلك لم ينسوا أن يهيئوا المكان
بأشياء أخرى ثمينة

فقد ابتنوا من الرخام
ثلاث مدافىء مربعة
تشتعل النار فوقها
ويحترق فيها عود الند ٠
وكانت النار تشتعل عظيمة
لم ير أحد فى الجبل الغريب
من قبل نارا فى هذه الروعة ٠
أما المضيف نفسه فكان يجلس
الى المدفأة الوسطى
على أريكة ممدودة ٠
ولقد جرت مباراة
بينه وبين البهجة
فأصبح يعيش على شفا الموت ٠

ودخل الى البهو
برتسيفال وضاح الجبين
بعد أن استقبله فأحسن استقباله
ذلك الذى كان قد أرسله ٠
ثم لم يتركه واقفا
بل طلب اليه أن يقترب
وأن يجلس : « اجلس قريبا منى
ولو اننى أجلستك هناك بعيدا
لما كان فى ذلك اكرام للضيف » ٠
هكذا تكلم المضيف الذى كان يعانى معاناة كبيرة ٠

وكان المضيف لشدة ما به من مرض
يشعل نارا قوية أمامه ويلبس ثوبا سميكا ٠
عليه فراء السمور الطويل العريض
من الداخل ومن الخارج
وكذلك العباءة التى لبسها من فوقه ٠٠٠

كان فرسان كثيرون من ذوى المهابة
يجلسون عندما حدث ما أثار عميق حزنهم
فقد قفز فارس شاب فدخل من الباب
وهو يحمل رمحا

وهى عادة من عادات الندب والولولة
وتفجر الدم على حدى الرمح
وسال حتى المقبض وخضب يد الفارس
بل وصل حتى كمه وبلله
وضج البهو فى كل أرجائه
بالبكاء النحيب
وسالت دموع غزار ما كانت تستطيع أن تذرفها
شعوب ثلاثين بلدا كاملة
وحمل الفارس الشاب الرمح
ودار به حول حيطان البهو الأربعة
ثم اتجه الى الباب
فقفز خارجا منه
وهكذا سكنت محنة الفرسان
التى أثارها الحزن
عندما جاءهم بالتذكار الرمح
وقد حمله الفارس الشاب اليهم
ولست أريد أن أسبب لكم الملل
ولهذا فسأبدا هنا
بوصف الأسلوب الفرسانى العظيم
الذى جرت عليه خدمة الفرسان
كان هناك فى نهاية البهو
باب من الفولاذ مقفول
فانفتح وخرجت منه بنتان شريفتان
سأقول لكم كيف اختاروهما فأحسنوا الاختيار
كانتا جديرتين بتمجيد العاشقين
لو كان بينهم من يبحث عن مولاة يخدمها خدمة الفرسان
ولقد كانتا فتاتين طاهرتين

وكانتا تحملان فوق شعرهما المكشوف
اكليلين من الزهور
وكانت كل واحدة منهما
تحمل فى يدها مشكاة من الذهب
اما شعرهما فكان طويلا مموجا أشقر ·
وأما المشكاتان فكانتا متوقدتين وضائتين
ولا ينبغى أن ننسى هنا
ثياب الفتاتين
التى رفلتا فيهما عندما جاءتا
كانت الجريفين فون تينابروك
تلبس ثوبا قرمزيا يميل الى الدكنة
وكذلك كانت زميلتها تلبس ثوبا مثله
وكان الثوب كثير الثنيات الطيات
فى الوسط حيث ضمه الحزام
الذى التف حول الخصر ·

ودخلت بعدهما أميرة
ودخلت مع الأميرة زميلة
وكانتا تمسكان بحاملين
مصنوعين من سن الفيل ·
فلما انحنت الفتيات الأربع
أضاءت أفواههن بنور أحمر كالنار
ووضعت الاثنتان
أمام المضيف الحاملين الصغيرين
وأديتا الخدمة على نحو رائع الكمال ·
وكان الأربعة يلبسن نفس الثياب
ويقفن فى صف تسعد به الأبصار ·
ثم دخلت ثلة من الفتيات الأخريات
عدتها ثمانية ، اثنتان اثنتان
حملت أربع منهن شموعا عظيمة
وحملت الأخريات راضيات

لوحا من الحجر الثمين
ينفذ نور الشمس وضاحا من خلاله
له اسم مشهور
هو السيلان اليماني
وكان لوحا طويلا وعريضا .
ولقد صنعه الصانع رقيقا
حتى يصلح ليكون منضدة .
وكان المضيف يأكل عليه اظهارا لثروته .
وسارت الفتيات جميعا
حتى أصبحن أمام صاحب القصر
فحنين الهام بحسب الأصول .
ووضع أربع منهن اللوح الثمين
فوق الحاملين المصنوعين من سن الفيل الأبيض
الأبيض مثل الجلد
ثم رجعن الى الوراء فى أدب رقيق
وانضممن الى الأربع الأخريات

وكانت ثياب البنات الثمانية
خضراء بلون النجيل
صنعت من مخمل أزاجوك
طويلة فضفاضة
يضمها على الخصر
حزام ثمين ضيق وطويل .
كذلك وضعت الفتيات الأنيقات
فوق شعورهن المكشوفة
أكاليل من الزهور اللطيفة .
وقد اختير للخدمة الرفيعة هنا
بنات الجراف ايفان فون نونيل
والجراف يرنيس فون ريل
وقد أتين من بلادهن البعيدة
كذلك أتت الأميرتان
تلبسان الثياب الأنيقة الثمينة .

وكانتا تحملان سكينين حادتين كالأشواك
على فوطتين ، كل واحدة بمفردها ،
معجزتين من المعجزات البارعة ،
وكانتا من الفضة البيضاء الخالصة
المصنوعة بدقة ومهارة
وقد شحذتا على خير وجه
فكانتا تستطيعان قطع الصلب
وأقبلت أربع من النساء الخادمات
فسبقن السكينين الفضيين
وكن يحملن الأضواء
وينرن الفضة بها
ولقد كن من النساء الطاهرات
انضممن الى الآخرين فى موكب مهيب ٠
وسأحدثكم الآن عما فعلته كل واحدة ٠

بدأن بانحناءة مهذبة ٠ ثم سارت الاثنتان
فوضعتا على المنضدة العظيمة
ما حملتا من فضة
ثم رجعتا فى أدب غامر
الى الاثنتى عشر الأخريات
واذا كنت قد أحسنت الحساب
فقد كن جميعا ثمانى عشرة ٠
ثم أقبل ست من الفتيات
يلبسن أفخر الثياب
نصفها من القصب المذهب
ونصفها من فراء نينوى
كانت هاتيك الفتيات الست
والست السابقات
يرتدين ثيابا مخططة مختلفة
تكلفت مالا كثيرا ٠

ثم أهلت بعدهن الملكة

مشرقة الوجه ، وضاحة الجبين .
حتى ظن الجميع أن النهار قد طلع .
وكانت الحسناء
تلبس ثيابا من بلاد العرب .
وقد حملت على حرير أخمردى ؟ أخضر
منية الفردوس
ومؤتلف الجذور والفروع
شيئا يسمى « الجرال »
تتلاشى بجانبه كل أمنيات الأرض
كانت تلك التى سمح الجرال لها بأن تحمله
تدعى ريبانس دى شوا
وكان من خصائص الجرال
أن من تقوم على أمره
تستمسك بالعفة
وتتحاشى النفاق .

وسبق دخول الجرال حملة الأنوار
عليهم علامات المهابة والثراء
كانوا يحملون مصابيح طويلة من الزجاج الشفيف
يتوقد بداخلها البلسم
فلما دخلوا من الباب
وتقدموا على نحو يدل على الأدب الرفيع
انحت الملكة انحناءة كريمة
وكذلك فعلت الفتيات
اللائى كن يحملن البلسم فى قنانه
ووضعت الملكة فى اخلاص لا يشوبه زيف
الجرال أمام صاحب القصر .
وتقول القصة ان بارتسيفال
نظر الى الملكة التى أتت بالجرال
فأطال النظر وبدا عليه التفكير
وكانوا قد ألبسوه تكريما له عباءتها
وسار السبع بخطى كريمة

فانضممن الى الثمانى عشرة السابقات
ولكن صاحبة العظمة والجلال
وقفت فى الوسط تحفها من كل ناحية
اثنتا عشرة . على قدر ما علمت ·
وهكذا بدت الملكة وعلى رأسها التاج
فى غاية الحسن والجمال ·

وجاء الى جميع الفرسان
الجالسين فى أرجاء البهو
ندل يحملون أحواضا من ذهب
يخدم كل نادل أربعة من الفرسان
ويرافقه صبى جميل الطلعة
يحمل منديلا أبيض اللون ·
حيثما رجيت بصرك وجدت بذخا الى بذخ ·
موائد ، مائة اذا أعددتها ·
فوضعوا مائدة
أمام كل أربعة من الفرسان العظام
وبسطوا فوق المائدة بمهارة
مفرشا أبيض اللون ·

وتناول صاحب القصر بعض الماء
وكان الحزن غالبا عليه
كذلك اغتسل بارتسيفال مثله
وأتى اليه صبى من آبناء النبلاء
فانحنى وركع أمامه
وقدم اليه منديلا من الحرير الملون ·
ووقف فى الأماكن الخالية
بين الموائد أربعة من الندل
مأمورين بأن يخدموا الجالسين
على خير وجه ·
فركع منهم اثنان ليقطعا الطعام

وأسرع الاثنان الآخران
مدارا بالطعام والشراب
وقدما للفرسان ما لذ لهم طاب .

ودعونى أحكى لكم المزيد عن الغنى الواسع
فقد استخدموا أربع عربات
وضعوا عليها الأقداح الذهبية الثمينة
أخذها من رفوف بالحيطان الأربعة
أربعة من الفرسان صفوها على العربات
التى سارت الى كل فارس فى مكانه ...

ودعونى احدثكم عن شىء آخر .
فقد طلبوا مائة من فتية الفرسان . نادوهم
فاقبلوا وتقدموا على نحو كريم
من الجرال خبزا وضعوه
على مفارش بيضاء
وذهبوا به الى الموائد
مائدة مائدة فى التو والساعة .
ولقد حكوا لى ، وأنا بدورى أحكى لك
ملتزما باليمين والعهد
أن من مد يده أمام الجرال
يجد الطعام جاهزا
طعام الماضى ، وطعام الحاضر ،
الطعام الساخن ، والطعام البارد
لحم الحيوانات الداجنة ، ، ولحم الصيد
ولا معنى لأن يعترض معترض
أو يشرع فى حديث الارتياب .
فالجرال ثمرة السعادة
وخلاصة حلاوة الدنيا
بلغ فى ذلك مبلغا من الكمال
يجعله يشبه جرال ملكوت السموات .

أما الاضافات التى يطيب بها الطعام

البهاريز والفلفل والمركزات
فأتوا بها في أوان صغيرة من ذهب
وكان المعتدل في طعامه
وكذلك النهم الأكول ينال بغيته ·
كان كل شيء يأتي الى الموائد
على خير ما توصى به آداب السلوك ·
فكانوا يأتون بعصير التوت والخمر والنبيذ الأحمر
وكان كل فارس يقدم قدحه كلما حلا له
ويطلب الشراب الذى يرغبه
فيتبين فيه قوة الجرال
وهكذا كانت الصحبة الكريمة كلها
ضيفا على الجرال ·
ولقد لاحظ بارتسيفال
الثراء الواسع والمعجزة الكبيرة
ولكنه تأدب فسكت عن السؤال ·

لقد قال في نفسه : « لقد نصحنى جورنيمانتس
عن اخلاص صحيح لا غبار عليه
فهل سيجرى على هنا
ما جرى على عنده ؟
فأعرف دون حاجة الى السؤال
امر هذه الجماعة الرفيعة · »
وبينما كان مستغرقا في هذه الفكرة
اقترب منه فارس يحمل سيفا :
كان سلاحه يساوى ألف مارك
وكان مقبضه من العقيق
أما حده فبدا عليه الاعجاز العظيم ·
وقدم صاحب القصر السيف الى الضيف
وقال له : « كثيرا ما استخدمته
هنا وهناك في المعارك العسيرة
قبل أن يصيبنى الله في بدنى
فخذه واسعد به

اذا لم يكونوا قد أحسنوا استقبالك هنا .
وعليك أن تحمله معك حيثما ذهبت
وستجد الحفظ والحماية
كلما استخدمته فى الصراع . »

اسفى عليه لماذا لم يسأل ؟
كم أنا حزين حتى الآن عليه
فهو اذ تلقى السيف بيده
وجب عليه السؤال .
كذلك يحزننى حال صاحب القصر العليب
الذى حبس الله عنه منته
ولو كان برتسيفال قد سأله
لوجد الخلاص والشفاء من فوره .

الباب السادس
قصص الحيوان

عرف الأدب الالمانى أول قصة تدور حول الحيوان فى نهاية القرن الثانى عشر أو أوائل القرن الثالث عشر ، قصة متكاملة مكتوبة باللغة الالمانية ، والطريف أنها ظهرت فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه « رواية الثعلب رينار » فى فرنسا ٠

وعلى الرغم من التشابه بين العملين القصصين فى الأسماء وفى خصال الحيوان وفى بعض التفصيلات ، الا أن القصة الألمانية لا تتكون من فصول متفرقة بل تأتلف من حلقات متكاملة فى اطار قصصى عام يضمها جميعا ٠ وقد وجد بعض الباحثين فى مخطوطات متأخرة اسم هاينريش النفاج مما يوحى بأن النسبة الى مؤلف بعينه قصد بها السخرية ٠ وأغلب الظن أن القصة الألمانية التى تكاملت وعرفت باسم « مصائب ايزنجرين » ثم باسم « الثعلب راينهارت » جاءت ثمرة تفاعل طويل بين عناصر من عناصر الداخل والخارج ، وأن الكثيرين من أصحاب الأقلام شاركوا فى تطويرها دون أن ينسبها أحد منهم لنفسه ٠ والمعروف أن هذه القصة اتخذت أكثر من صورة فى ألمانيا نفسها ، فهناك فى المنطقة المتاخمة لهولندة صياغة أخرى يربو حجمها على أربعة أضعاف الصياغة «الالزاسية» التى يحتمل أن تكون الأقدم ، والتى ننقل عنها (٢٢٦٦ بيتا)

الثعلب راينهارت

الثعلب راينهارت حيوان ماكر ، يصب مكره وخبثه على الحيوانات الأخرى ولكنه لا يوفق الا نادرا ، فقد مكر به الديك (شانتيكلير) ، وأطعمته الزميرة روثا ، وهاجمته الكلاب فحالت بينه وبين قطعة الجبن التى احتال على الغراب لينالها ، وأوقعه القط (ديبريشت) فى فخ كاد فيه أن يلقى حتفه ٠ ولهذا بحث الثعلب عن زميل قوى فتحالف مع الذئب القوى (ايزنجرين) ، ولكن ايزنجرين لاقى المتاعب ، وتعرض لكثير من

المصائب التى تسبب له فيها الثعلب . فقد أدخله هذا الى مخازن النبيذ فى الدير . فشرب الذئب حتى سكر ، وزاد صياحه ، فنال عقابا مريرا . وافترق الزميلان وسكن الثعلب راينهارت فى بيت بالغابة ، ومر به الذئب ايزنجرين ذات يوم فشم رائحة شواء جميلة ، فدفعه الجوع الى التصالح مع الثعلب ، فما يستطيع القوى أن يعيش آمنا الا اذا تحالف مع الخبيث . ورأى الذئب أن الثعلب يريد أن يدخل فى طائفة للرهبان.فقرر أن يدخل معه . ولكن الثعلب لم يكف عن الكيد للذئب فقرر رأى الذئب على الذهاب الى الملك ، ورفع القضية اليه .

كان الملك — وهو الأسد (بريفل) — متوعكا ، دخلت نملة فى أذنه فأفسدت عليه مزاجه . ولكن ظن أن ما به يرجع الى أنه لم يجلس للقضاء منذ وقت طويل . وتولى الدب (برونو) القضية وكيلا عن الذئب . وعرض شكواه من الثعلب الذى لم يحضر الى المحكمة . ووافق الحيوانات على رأى الوعل (راندولد) الذى حكم بالقبض على المذنب وشنقه . ولكن الجمل (اولبنته) نصح بأن يدعى الثعلب للمثول أمام المحكمة . وأن تكرر الدعوة ثلاث مرات . كذلك جاءت أسرة الدجاجة تبكى وتشكو الثعلب الذى عض الدجاجة البياضة وقتلها — وقبل الدب برونو أن يذهب الى الثعلب رسولا من الملك . ورحب الثعلب به ، ودعاه الى تناول العسل . واقتاده الى شجرة مشقوقة حدثه بأن فيها عسلا لذيذا . فلما مد الدب رقبته داخل الشق سحب الثعلب الاسفين ، فظل الدب حبيسا . ولم ينج بحياته الا بعد أن ذاق الأمرين على يد الفلاحين . وعاد الدب الى الملك فشكا له . ولكن الحكم باعدام الثعلب تأجل ، وتقرر أن يذهب القط الى الثعلب ليجرب معه . ولكن القط وقع بدوره فى محنة عظيمة . فقد أسال لعابه بوصفه للفيران الكثيرة فى بيت القسيس ، فلما ذهب الى هناك ، وقع فى فخ نصب للثعلب ، ولم يخرج منه الا وقد أشرف على الهلاك .

وكان الرسول الثالث الذى ذهب الى الثعلب هو حيـــوان الغرير (كريمل) الذى نجح فى مهمته ، وأتى الثعلب الى حيث الملك ، وتقدم نحوه وهو يلبس ثياب الأطباء ، وأقنعه بأنه أتى اليه بعلاج عظيم . وقال ان هذا العلاج يتطلب فراء ذئب مسن ، وجلد دب ، وفراء رأس قط ، فاضطر الثلاثة الى تقديم القطع المطلوبة ، حتى يشفى الملك ، واتسعت دائرة العذاب فطلب الطبيب المزيف بذبح دجاجة ، وباقتطاع شريحة من فخذ الخنزير . وتفرق الحيوانات خوفا على حياتهم ، ولم يبق الا الفيل والجمل .

ووضع الثعلب الملك فى حمام ساخن . فخرجت النملة من أذنه . فلم يسلبها الثعلب بل اتفق معها على أن يطلق سراحها نظير تنازلها له عن مئات من الحصون فى الغابة . وفرح الملك الأسد بشفائه واستجاب لطلبات الثعلب . فجعل الفيل ملكا على بوهيميا . وجعل الجمـــــل رئيسا لدير الراهبات فى ارشتاين . وكانت النتيجة أن أهل بوهيميا طردوا الفيل شر طردة . وألقت الراهبات الجمل فى النهر . وهكذا أوقع الجميع فى المصائب . الا الملك وحيوان الغرير . وجاء دور الملك فأعطاه الثعلب السم فقضى عليه . أما حيوان الغرير فقد بقى مع الثعلب الذى ظل كما هو خبيثا كاذبا منافقا . يعينه على الشر السذج من الصغار . ومحبو النفاق من الكبار .

مطلع القصـــة

هذا الكتاب اسمه الثعلب راينهارت
اصلح الله حالنا .

اسمعوا القصة العجيبة
والحكاية الغريبة

عن حيوان شرس
وقد جرت هذه الأحداث فى الواقع
ولكنها أمثال نافعة فى أحوال كثيرة .

كان هذا الحيوان عاكفا
على اللؤم والخبث والتآمر
وكثيرا ما عانى هو أيضا من المتاعب .

ولكنه كان عليما بالحيل الخبيثة
وكان اسمه الثعلب راينهارت .

والآن أحكى لكم
أصل الحكاية

كان هناك فلاح غنى
يعيش سعيدا مسرورا

على حافة قرية
حيث تبدأ الحقول

وكان ذا مال وأملاك
لديه من القمح والذرة العويجة ما يكفيه
وكان المحراث لا يكف عن تقليب الأرض ·
كان اسمه لانتسيلين
وكانت زوجه تسمى رونتسيلة
وكان الفلاح يشكو شكوى مرة
من راينهارت الثعلب
الذى كان كل يوم يأكل دجاجاته
فقد كانت حقوله وحديقته
ضعيفة الأسوار ·

وتحدثت السيدة رونتسيلة :
« يا أيها الساذج الهرم ، يا لانتسيلين
لقد ضاعت منى عشر دجاجات
أكلها راينهارت

فما أشد غضبى وغيظى · »
هكذا سمع الفلاح لانتسيلين اللوم
ولم يكن لديه ما يقوله دفاعا عن نفسه
بل تحتم عليه أن يستجيب
لما قالته له زوجه رونتسيله
فأقام سياجا متينا
يجد فيه الديك شانتكلير
وزوجه الدجاجة الحماية

فقد كان راينهارت يدبر لهما أمرا
وذات يوم عندما طلعت الشمس
جاء راينهارت الى العزبة
وهو ينوى تنفيذ مخططه
وأراد أن يباغت شانتكلير
مباغتة خبيثة
فضيق عليه الخناق

رأى راينهارت السياج سميكا عاليا
فاقتلع بأسنانه لوحا من ألواحه
ووقف متخفيا منكمشا على نفسه

فلما لم ير أحدا ، فرح
وتسلل من خلال السياج
وكان شانتيكلير يقبع هناك
وسرعان ما كان عدوه اللدود على مقربة منه ·
ورآته الدجاجة (بنطه)
وكان شانتيكلير نائما عند السياج
وصاحت الدجاجة : « انتبه ياسيدى »
وطارت مع رفيقاتها
الى شرفة عالية ·

فاتى شانتيكلير مسرعا
ونادى عليها أن تعود الى السياج
من فورها ، حالا ، وقال
« لا ينبغى عليكن أن تخفن
من اى حيوان كائن ما كان
يهدد حديقة متينة السياج
ولكن عليكن يا نسائى الحبيبات
أن تدعين الله ليحفظ على حياتى ·
فقد رأيت فى المنام شيئا مفزعا
اذا كنتن تردن الحقيقة
رأيت اننى فى فراء أحمر
وحول رقبتى ياقة من العظم
فانا أخشى أن يكون ذلك نذير شؤم
عسى أن يرعانى برعايته
الملاك الحافظ الأمين ·
والحق اننى أحس بالضيق · » –

فقالت الدجاجة السيدة بنطه
ياسيدى وزوجى · لقد رأيت لتوى
حركة مريبة فى وسط النبات
واذا لم تخنى حواسى
فأنا أتوقع أن يكون هناك خطر
وقاك الله القوى العزيز من كل شر ·

ولكن قلبي يحدثني بشيء مخيف .
بل انني خائفة مرتاعة
وارجو الا نقع في ضيق »

فعاد الديك شانتيكلير يقول :
« انني أقسم لك بحياتي
ان امرأة واحدة لتحس من الخوف
قدر ما يحسه أربعة رجال معا .
ولقد سمعنا مرارا وتكرارا
أن من الاحلام ما لا يتحقق
الا بعد سبع سنوات . »

فردت عليه السيدة بنطة
« دعك الآن من هذا الغضب
وطر الى هذه الكومة من الأشواك .
ولا تنس ياسيدى أن أولادنا
لا يزالوا صغارا جدا
فاذا أنت ضيعت حياتك
بقيت أنا امرأة حزينة
بلا عون أو مساعدة .
ان قلبي يحدثني بشيء
وأنا خائفة عليك خوفا شديدا
وقاك الله من كل شر . »

فطار شانتيكلير الى كومة الأشواك
وظل فوقها حتى أنزله راينهارت بالحيلة .
ثم لاذت بنطة بالفرار
وجرى راينهارت الى أسفل كومة الشوك .
ولما كان شانتيكلير في مكان بعيد
فقد لجأ راينهارت الى الحيلة
التي عرفت عنه ، فقال :
« من هذا الذي يجلس في هذا المكان المرتفع ؟

هل أنت زينجلين ؟

فقال شانتيكلير : « لا · أنا لست زينجلير ،
أبى هو الذى كان يسمى زينجلين · »

فقال راينهارت : « هذا جائز ·
والحقيقة اننى حزين لوفاة أبيك
لأنه كان كريما مع أرق الكائنات حالا
فالاخلاص المتبادل بين الأقارب
نعمة عظيمة ·
اما أنت فتسلك مسلكا خشنا
هذه حقيقة أقولها لك ·
لقد كان أبوك محبا لأبى
ولم يكن يجلس فى مكان عال اذا لقيه
وكان اذا رأى أبى
طار اليه مسرعا
ورحب به وحياه ، ولم يكن ينسى
أن يرفرف بجناحيه
سواء كان الوقت مبكرا أو متأخرا
ويقفل عينيه
ويغنى له اغنية بهيجة »

فقال شانتيكير : « سافعل بكل تاكيد
ما كان أبى يفعله
فارحب بك كل الترحيب » ·

ثم رفرف بجناحيه
ونزل من مكانه المرتفع وهو فرح مسرور ·
لقد كان الأحمق على عجل
ولسوف يندم على ذلك ·
فلما أغمض عينيه وبدأ فى الصياح
أطبق راينهارت عى رقبته وجرى ·
وصرخت بنطة وولولت
ولكن راينهارت جرى

واندفع في سرعة خارقة
نحو الغابة .

وسمع السيد لانتسيلين الضجة
فقال : « ويلاه . ماذا جرى للدجاج . »
وقال شانتيكلير لراينهارت :
« لماذا تجرى بهذه السرعة ؟
لماذا تدع هذا الفلاح يسبك ويشتمك ؟
ألا تستطيع الرد عليه ؟
فقال راينهارت : « بل أستطيع .
كف عن صياحك الفارغ أيها الفلاح . »
لم يكن شانتيكلير مطمئنا فى حلق الثعلب
فلما انفرجت أسنانه
أخرج رقبته من حلقه مسرورا
وطار من فوره عاليا
وحط على شجرة حيث أمن على نفسه .
أما راينهارت فقد استبد به الحزن .

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
× هرتمن فون أوى : ايريك	١٢٢
جريجوريوس	١٣٨
هاينريش المسكين	١٥٢
ايفاين	١٦٤
× فولفرام فون أيشنباخ : بارتسيفال	١٨١
الباب السادس : قصص الحيوان	
× الثعلب راينهارت	١٩٧

الإشـــــراف الفـــنـــى : حســـن كــامـل
التصميم الأساسى للغلاف : أســامة الـعـبـد

طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة